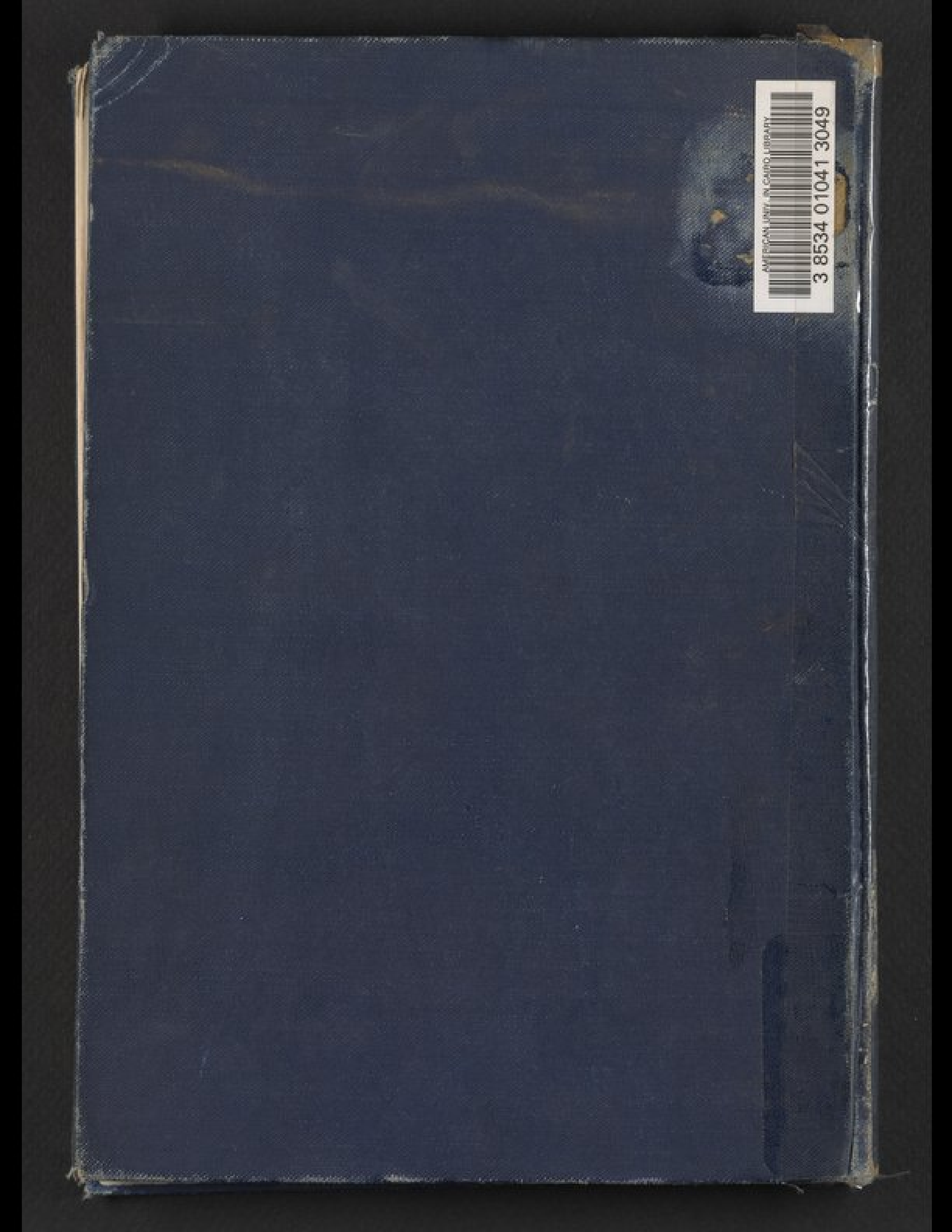
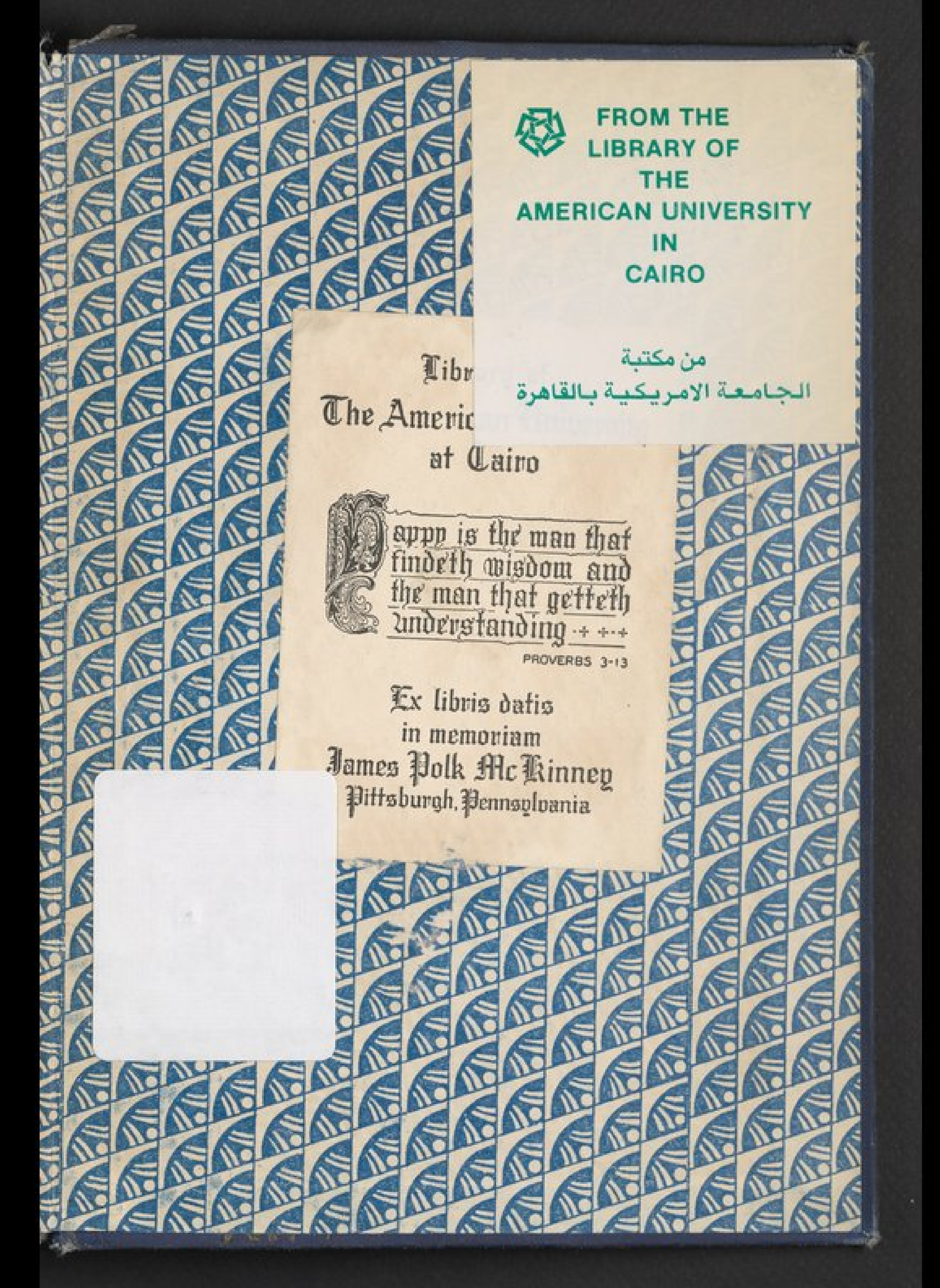
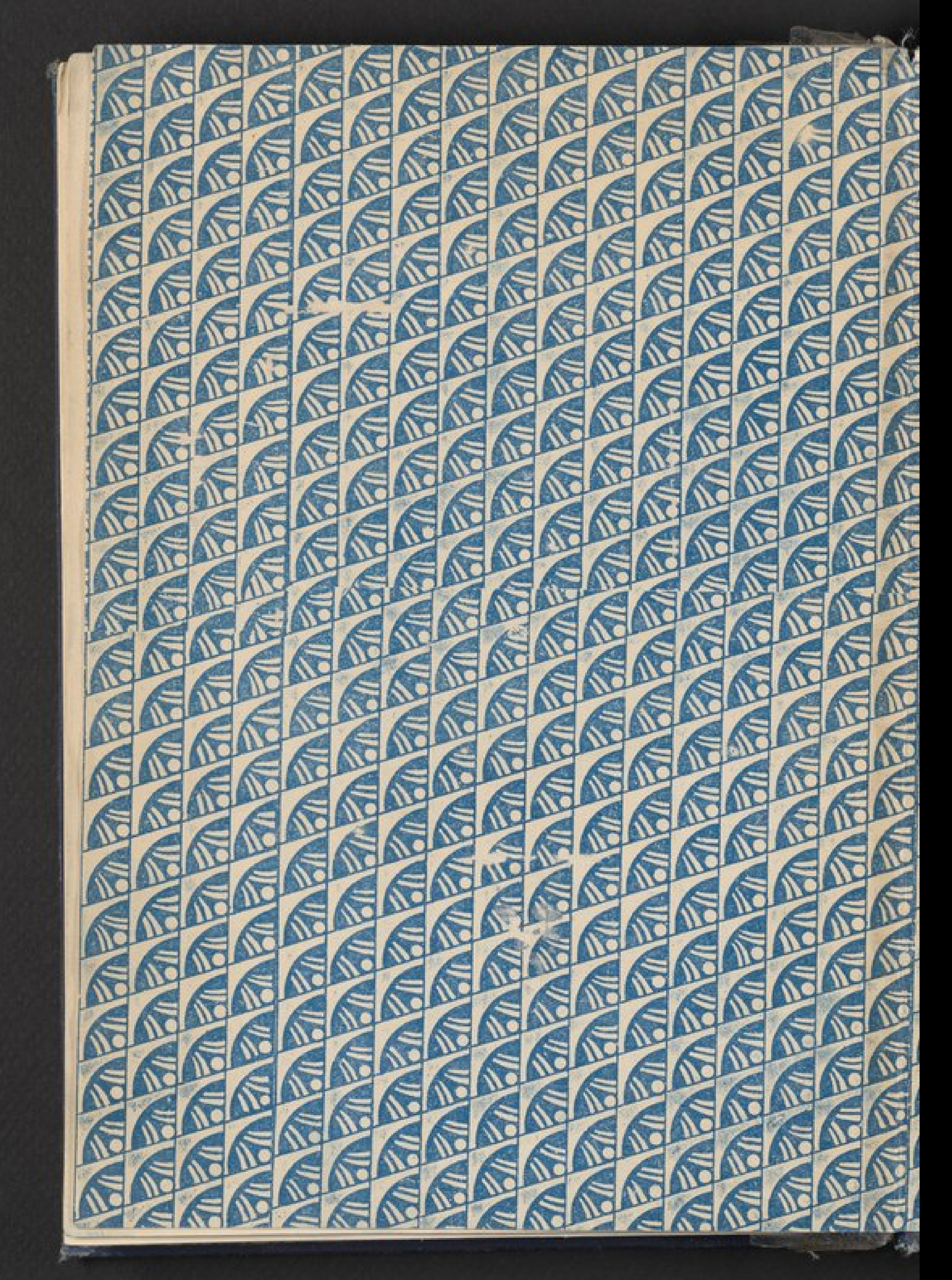
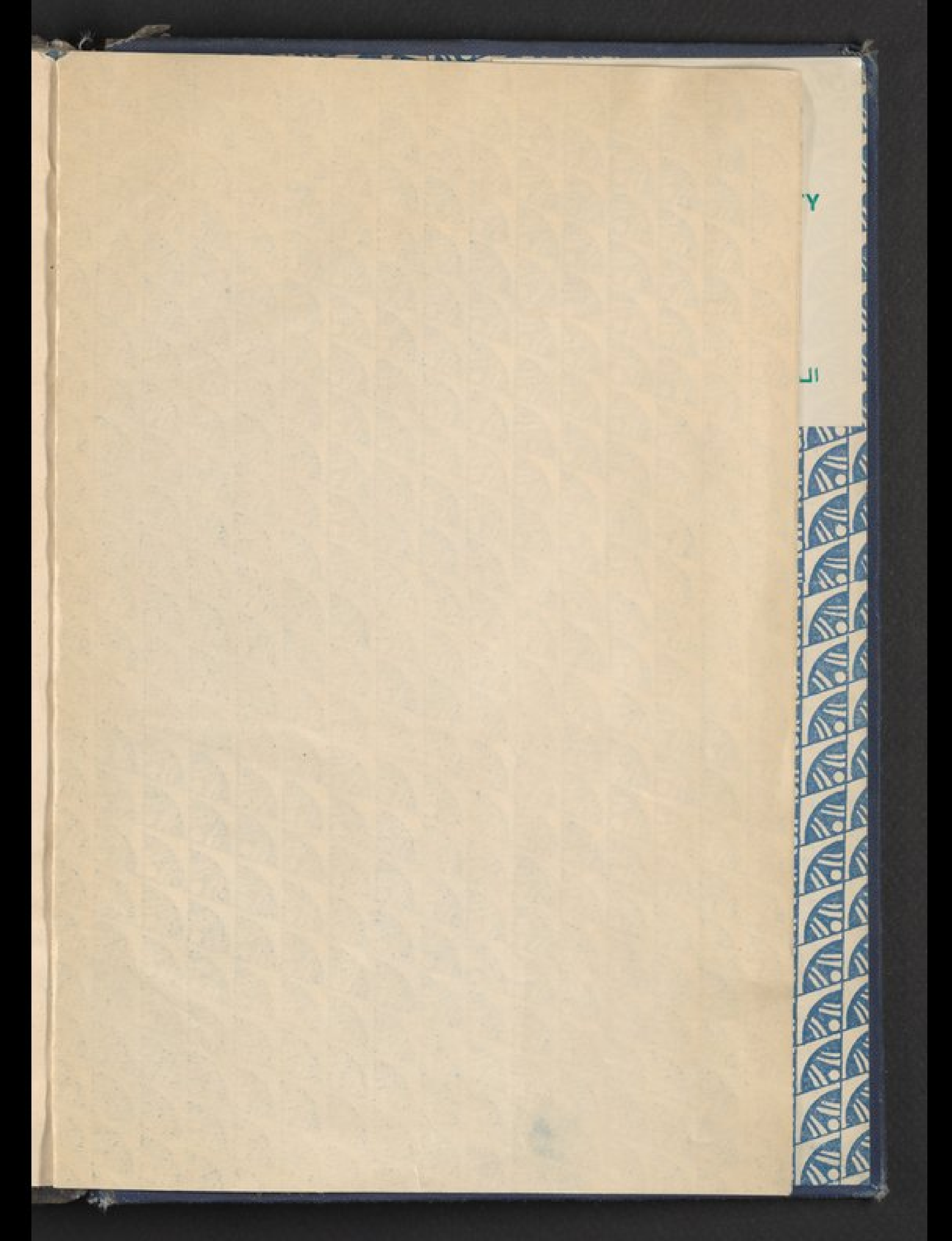

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01041 3049



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة
Libr
The Americ
at Cairo
Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding
PROVERBS 3-13
Ex libris datis
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania





مباحث عربيــــة

بشر فارس
دكتور فى الآداب من جامعة باريس

مباحث عربيّة

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
١٩٣٩

للمؤلف

في اللغـة العربيـة :

" قطعة لحــم " قصة فازت بجائزة مجلة " الهلال " في « مباراة القصة المصرية » ، ونشرت فيها ، أغسطس ١٩٣٤ . ثم نقلها Herbert Melzig إلى اللغة الألمانية ، ونشرت في صحيفة *Frankfurter Zeitung* ، ١٧ سبتمبر ١٩٣٧ .

" مفرق الطريق " مسرحية في فصل واحد ، مع توطئة في الطريقة الرمزية المستحدثة . مصر ١٩٣٨ (مطبعة المعارف ومكتبتها) .

في اللغـة الفرنسية :

" العِرض عنــد عرب الجاهليــة " ، بحث في علم الاجتماع . *L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam*, Paris 1932, *Adrien-Maisonneuve*, éditeur . رسالة لشهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس (السربون) . باريس ١٩٣٢ .

" المشكلات التي تعرض للكاتب العربيّ الحديث من جانب اللغـة والثقافة والاجتماع ، ولا سيما في مصر " . مبحث ألقي في معهد الدراسات الإسلامية لجامعة باريس ، ثم نشر في " مجلة الدراسات الإسلامية *R. E. I.* " . باريس ١٩٣٦ .

" مباحث " نشرت في " تكملة دائرة المعارف الإسلامية *E. I., Supplément* " الخارجة في ليَيْدِن ، ١٩٣٦ ى . وقد نُقلت هذه المباحث إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية وظهرت بهما في السِفْر ذاته .

معدّ للطبع :

في اللغـة العربيـة :

" مجموعة قصص " .

" رسالة في الأدب العربيّ الحديث " .

في اللغـة الفرنسية :

" مجرى الأدب العربيّ في مصر لسنة ١٩٣٨ ، من الناحية الاجتماعية " . مبحث ألقي في مؤتمر المستشرقين المنعقد في بروسل ، سبتمبر ١٩٣٨ .

" مفرق الطريق " .

إلى انبعاث الروح العلمىّ الخالص

فى مصر والشرق العـــربى

ب . ف

الفهرس

المشتمل

تصدير		٩ — ١٤
بيان		١٥ — ١٨
استطلاع[1]		
مسلمون فى فنلندة	مع سبع صور	١٩ — ٣٠
فى علم الاجتماع		
مكارم الأخلاق	تعبير أخاذ يرجع إلى الأخلاقيات التقليدية	٣١ — ٥٦
المروءة	كلمة رمز	٥٧ — ٧٤
التفرد والتماسك عند العرب	مراجعة أقوال المستشرقين	٧٥ — ٨٤
البناء الاجتماعى عند عرب الجاهلية		٨٥ — ٩٢
فى اللغة		
تاريخ لفظة الشرف	محاولة	٩٣ — ١١٦
بعض الاصطلاحات	فى الموسيقى والفلسفة	١١٧ — ١٢٣
بعض المخطوطات العربية	لاستخراج مصطلحات مختلفة	١٢٤ — ١٣١
لَحَق الكتاب		١٣٣
المسارد :		
مسرد المخطوطات		١٣٤ — ١٣٦
مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة		١٣٧ — ١٤٢
مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة لغير اللغة العربية		١٤٣ — ١٤٤
المستدرك :		
المضاف		١٤٥ — ١٤٧
الفائت		١٤٨

(١) enquête, inquiry .

تصـــدير

عَطَفَنى إلى صناعة الكتابة – خُرِسَت ! – ميـل دفين إلى قول الشعر وسياقة القَصص ومعالجة النقد . ثم إنه اتّفق لى ذات يوم أنْ فطنت إلى خِفّة بضاعتى ، إذ وجدت شعرى لا يسفر عن طريف ونثرى لا يكاد يرجع إلى محصول . فاعتزمت الاجتهاد وابتغيت النزول إلى مضطرَب الحياة قبل التأليف . فطمح بصرى إلى بلدان الغرب . ولكنّ أهلى عنها ردّوه . فاستحكم الشقاق بينى وبينهم حتى كان يومٌ يئسوا فيه من زجرى ، فمضيت إلى باريس .

فى باريس استدركت ما فاتنى فى مصر من التحصيل أو كدت ، وقد جذبتنى الفلسفة خاصّةً فأقبلت على فروعها . وكنت فى ذلك العهد سعيداً بها وشقيًا فى آن ، ذلك أنى كنت أؤدّب ذهنى من طريق العلم لا من باب الأدب الصِّرف . والآن أذكر كيف جاهد ذهنى نفسه حتى ينفضَ من عناده فينقاد للأساليب الجافة

وينشط للمسالك الوضعيّة . وكم مرّةٍ نبذتْ يدى مجلّدات علم النفس وتاريخ الأديان والمنطق والإلهيات وغير ذلك من الفنون الكالحة ، لتتلمّس ديوان شعر أو سفر قصص أو مسرحيّة ... أو القلم لترقم أبياتاً وتخطّ رسالة . ثم كم حرّفتنى قدماى فى السربون و « الكوليج دى فرانس » عن مدرّجات الفلسفة وما يأخذ مأخذها لتطرحنى فى مدرّجات الأدب وتاريخ الفن . ثم كم فررت من حجرتى ، وقد خنقتها الكتب والكراريس ، أطلب فى الطرق والقهوات مذاهب العبث وما وراءها من إحساس عنيف يصرعك فى مكانكَ ، سرّك أو حزَنك ...

انتهى التحصيل بنيل الإجازة فوجبت العودة . ولكنْ هل ينتهى العلم ؟ وهل تُترك باريس بين خبزٍ مُرَوَّلٍ صباحًا وشِواء رَشراشٍ مساء ؟ بقيت للحصول على شهادة الدكتوراه . فبرزتْ لى عدّة موضوعات تصلح لرسالة ، فاخترت بعد التأمل ما يساير نزعات نفسى ، اخترت هذا الموضوع : « العِرض عند عرب الجاهلية » . والذى ساقنى إليه ولع قديم بكل ما يتصل بلغة العرب ، فاثنان إلى معرفة أحوال القوم واستطلاع آثارهم : باعثان ، أحدهما وِجدانىّ والآخر عقلىّ .

من ذلك الحين هويت العلم للعلم ، لأنى قصدته من جانبٍ مستحَبّ ، ثم لأنى كنت أرجع من أجله إلى كتب الأدب ، نحو دواوين الشعر الجاهلى والأموى ورسائل الجاحظ وكتاب الأغانى وغيرها ؛ حتى إنى لما أرحت القلم من عناء الرسالة أصبتُه إلى التأليف العلمىّ يرفّ ، من بعد ما استعصى زمناً . على أنه ظلّ طوال إقامتى بباريس أخا أدب ، لأنّ صاحبه لم يتحول قط — فى دخيلة نفسه — عن هواه الأوّل .

ولما قفلت إلى مصر تنازعنى فيها الأدب والعلم . فأردت أن أرضى الخصمين ، إذ قلت لقلمى ينقلُ إلى العربية الرسالة التى كان سطرها فى باريس ثم ينطلق إلى الأدب . قلت ، والمقادير شغلت القلم عن إتمام النقل . وما كنت لأغضب مما حدث وفى تقديرى أنى لا أزال إلى دقائق العلم فقيرًا . فانقلبت إلى التحصيل طيّع النفس ، فرحًا بالتقصّى فى التنقيب . فشخصت ثانيةً إلى باريس ، ولزمت دار الكتب الوطنية ، ثم رحلت إلى ألمانية حيث لبثت زهاء سنة أُنظر فى طرائق علمائها إلى جانب مناحى أدبائها . ثم قذف بى الاغترابُ فى سبيل التلقّى — آخرَ ما قذف حتى اليوم — إلى لندن .

فى ذلك العهد الثانى من الاجتهاد بدا لى أن أكتب مباحث، بعضُها تكملة لمسائل كنت عرضت لها فى الرسالة أو أشرت إليها، وبعضها أجنبيّ عنها . وهذه المباحث أجمعها هنا والجرأة تغمر صدرى . والحق أنّ طائفة منها قد نشرت باللغة الفرنسية فى أوربة أو بالعربية فى مصر . غير أنك تصيبها فى هذا الكتاب وقد رُزقت قسطها من التهذيب ثم الحذف والزيادة ، بحيث إذا أردتَ التعويل فعلى هذه المجموعة يكون .

ولم يدُر فى الحسبان أنى ناشر تلك المباحث قبل الرسالة . إلّا أن هذه لا تزال موضع مراجعة ، فضلاً عن أنها متشعّبة المطالب . فوددت أن أنزل تلك المباحث المختصرة منزلة التوطئة لها من حيث المنهج والأسلوب :

أما المنهج ، فالاعتماد على المشاهدة دون الفرض ، والتحقيق دون التخيّل ، والموضوعية دون الذاتيـة ، وإقامة الدليل دون القناعة بالمقبولات والمسلّمات ، ثم الذهابُ من المركّب إلى البسيط ومن الخاصّ إلى العامّ ؛ مع تسليط النقد النافذ — من جانبيه الخارجى والباطنى — على الواقعات ، من حيث إنها أشياء طبيعية مبذولة للحس ، لا أمثال عالية ولا معانٍ منتزعة من المحسوسات

مجرَّدة فى الذهن أموراً كليّةً عامةً ؛ ومع نبذ التشيّع للآراء من مرتجَلة وقَبْليّة ، فلا إيثار هوًى ولا تعصب لأحد على أحد ؛ ومع ردّ تلك الواقعات إلى مصادرها ، من طريق الوصف المباشر أو الاستشهاد بالنصوص الصريحة ، حتى لا يُرسل الكلام فيضيع حظه من التثبُّت ؛ ومع التحرّى فى البحث ، سعياً فى الدنوّ من الحقيقة ، بفضل المنطق ذى العَرض البيّن والسَّلك المتّصل والاستدلال القويم والنظر الصادق على غير استكراه ولا تحكّم ولا مكابرة ؛ ومع إثبات ما أتى به العلماء العاملون من قبلُ بالاستناد إليهم أو الاعتراف بجهدهم ، خروجاً من ظِنَّة التلصّص والسطو .

وأما الأسلوب فضارب إلى الإنشاء العلمى . وبه يكون اللفظ حرًّا ، والعبارة واضحةً ، والإطناب بقدرٍ ، والجملة كأنها قائمة برأسها ، والنسق متتابعاً بتجاوب الأغراض ؛ من غير تزويق ولا تكلّف — فلا ألفاظ تنهال ولا فقر تحبَّر — حتى إن الدائب فى قراءة الأدب قد يقول : هذا جفاء وهذا نبوّ ! غير أن الإنشاء العلمىّ إذا حسن به أن يكون سهلاً — على أن يترفع عن الركاكة والقلق — فإنما يحقّ له أن يعمد إلى تراكيب وألفاظ لا مرجع لها فى المنقول من متن اللغة الأولى ، بل وضعها الأئمة من المولَّدين اصطلاحاً يوم ألّفوا فى صنوف العلوم وضروب الفنون . وقد يقصر ما وُضع

عن سدّ حاجات التعبير العلمىّ لهذا العصر ، أو ربما غاب بعضُ ما وُضع عن العالم المنشئ ؛ فلا بدّ إذن من الاستحداث فى مفردات اللغة وألوان الأداء . وإنمـــا التَّبِعة فى الاستحداث على العلماء المنشئين وحدَهم .

على تلك السنّة أجريت تأليف هذه المباحث ؛ ولعلّى صنعت شيئًا . وإن أنا زغت عن الخطّة المرســـومة ، فأخطأت وجهَ الصواب — وكثيرا ما أخطأته — فممّا يزعُمُه أملى أن أُردّ إليها وأن يُتجاوز عنى .

القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٨

بيـــان

١ — تُذكر المصادر على الوجه الوافى ، أوّلَ ما تذكر ، فى كل مبحث : اسم المؤلف وعنوان الكتاب وتاريخ الطبعة (وموضع الطبع إذا تنازعت الكتاب طبعتان أو أكثر) ورقم الجـــزء والصفحة (والسطر إذا اقتضت الحال) . ويُذكر المصدر الواحد على الوجه الوافى إذا انتقل من مبحث إلى مبحث ، لأن القارئ قد يقرأ مبحثاً دون مبحث .

٢ — كتابة الكلمات الإفرنجية (والأعجمية عامّة) مُشكلة من المشكلات ؛ ولا نعنى الكلمات التى نريد إلحاقها بالأوضاع العربية من طريق الإبدال والتحريف حتى تصير كأنها منها (نحو : الساذَج والدرهم قديماً ، والتلفون والبلشفيّة حديثاً) ، بل نعنى الكلمات التى نقصد حكايتها على أصل مخارج حروفها ونبرات حركاتها (نحو أسماء الأعلام وأسامى الكتب) . وعلّة المشكلة أن بعض الحروف والحركات الرومانية لا تجد نظائرها فى هجائنا المشهور ، كما أن بعض الحروف والحركات العربية لا تجد نظائرها فى الهجاء الرومانى . وقد تدارك المستشرقون هذا النقص بوضع حروف وحركات معلومة ، متداولة فيما بينهم ، تؤدّى تلك الحروف والحركات العربية . وهذه طريقة يسميها القوم transliteration (أى نقل الحروف) .

ومما يقبض الصدر أننا لا نظفر بمثل هذه الطريقة فى لغتنا حتى اليوم ، مع حاجة علمائنا وكتابنا اليها ، ومع وجود جماعات من حملة العلم وأهل اللسان[١] . ولذلك تجنبت ما استطعت رسم الكلمة الإفرنجية بالحروف العربية ، بل رسمتها بالحروف الرومانية ؛ وإن اتفق لى أن أرسمها بالحروف العربية أردفتُها بالأصل أى بالكلمة مرسومة بالحروف الرومانية . ويغلب ذلك على أسماء الأعلام والبلدان ؛ وأما أسامى الكتب وما يجرى مجراها فقد كتبتها بالحروف الرومانية ، وقليلاً ما نقلتها إلى العربية .

٣ — فى سياق المبحث ألفاظ اصطلاحية technique, technical وخاصّة typique, particular . وقد أثبت ما ينظر اليها فى الفرنسية ثم الإنجليزية والألمانية أحياناً . وبعض هذه الألفاظ مما وقع الىّ من طريق المطالعة أو الاجتهاد . وبعضها مما استنبطه المحدَثون أو أحيوه . ولم أر حاجة إلى تمييز ما أتيتُ به مما أتى به غيرى[٢] ، إذ المقصد إغناء لغتنا سواء من هنا أو من هنا . وفى نيتى أن أفرد لأمر طائفة من الاصطلاحات (الفلسفية والموسيقية واللغوية) مبحثاً آخر يجمع بين الاستقصاء الممكن والتفصيل المرضىّ ؛ ولذلك اكتفيت فى هذا الكتاب بإدراج أجلّ الاصطلاحات شأناً فى جدول خاص .

---

(١) قد فطن ابن خلدون من زمن بعيد إلى ضرورة هذه الطريقة ("مقدمة" بيروت ١٩٠٠ ص ٣٤) . وجاء من بعده ابرهيم اليازجى (مجلة "الضياء" مصر ١٩٠٠ السنة ٢ ص ٥١٦) وأنستاس مارى الكرملى "رسالة فى الكتابة العربية المنقحة" بغداد ١٩٣٥ ص ١٧ — ٢٠) . وأخبرنى الشيخ شوقى أمين قال : إن مجمع فؤاد الأول للغة العربية عالج هذا الموضوع فى دورتيه الرابعة والخامسة (١٩٣٧ — ١٩٣٨) .

(٢) على أن أكثر الاصطلاحات التى أثبت ما ينظر إليها فى اللغات الأجنبية مما أتيت به .

٤ — تفسير الرموز :

سو : سورة من القرآن .

آ : آية من القرآن .

ج : جزء .

ص : صفحة .

س : سطر .

ش : بيت من الشعر .

(ح) : الحاشية لا المتن .

ط : طبعة .

هـ : (سنة) هجرية .

خ : (نسخة) مخطوطة (أو كتاب مخطوط) .

ذ : الكتاب ذاته (أى الكتاب المذكور فى المرجع السابق توًّا)

ن : المؤلِّف نفسه (أى المؤلف المذكور فى المرجع السابق توًّا)

ك ك : الكتاب المذكور قبلُ للمؤلف .

ض ك : الموضع المذكور قبلُ من الكتاب أو من الكتاب المتقدم ذكره للمؤلف .

ى : وما يلى ذلك (مثلاً سنة ١٩٠٠ ى = ١٩٠٠ و ١٩٠١ ؛ ص ١٠ ى = ص ١٠ و ١١ ؛ س ٥ ى = س ٥ و ٦) .

ى ى : وما يلى ذلك (مثلاً سنة ١٩٠٠ ى ى = ١٩٠٠ والسنوات التى تليها ؛ وقس على هذا .) .

م : مكررة (مثلاً ص ٥ م من المخطوطة) .
ظ : انظـر (نصّ كذا) ، (بمعنى اطلب وراجع) .
ز : وازن (بين النصّين ، للتقريب أو المقابلة أو المعارضة)
قبـل : ما سبق من الـكلام .
بعـد : ما يأتى من الـكلام .
تحت : أسفل الصفحة .
فوق : أعلى الصفحة .
محذوف : نص محذوف (من مخطوطة أو كتاب مطبوع) .
مزيد : نص مزيد .
رواية : رواية مختلفة (للنص الواحد) .

٥ — إيضاح العلامات :

' ' بين هاتين العلامتين يقع عنوان كتاب أو مبحث أو مقالة أو فصل أو اسم مجلة .

« » بين هاتين العلامتين يقع النص المقتبس بحروفه citation, quotation . وأما ما يقع فى مجرى النص بين هاتين العلامتين ( ) فإشارة يزيدها مؤلف هذا الـكتاب ، وأما ما يقع بين هاتين العلامتين [ ] فتصويب من عنده .

△ تقع هذه العلامة بين اسم علم وتاريخ فتدل على الوفاة . والتقويم المتبع فى تاريخ الوفاة هو الهجرى ، إلاّ إذا عُيّن التقويم المسيحى .

(؟) تعقب هذه العلامة ما فيه شك أو خفاء .



السيّد فيلى أحمد حكيم

الإمام



السيّد ابرهيم عريف الله

أمين سر « الجمعية الإسلامية بفنلندة »



أسرة السيّد زهور طاهر

رئيس « الجمعية الإسلامية بفنلندة »

١

مسلمون فى فنلنـــدة

تمهيـــد

رحلتُ ، صيف سنة ١٩٣٤ ، إلى بلاد الشمال ، ولبثت شهراً و بعض شهر بفنلندة . ولشدّ ما دهشت لمّا أخبرنى أحد الفنلنديين الذين تعرفت بهم أن فى بلده طائفة من المسلمين ؛ فاستزدته فلم يزد . فما زلت فى بحثٍ حتى اتّصلت بالمسيو سوراڤوو SORAVUO من موظفى وزارة الخارجية هنالك . نخفّ لحاجتى — حفظه الله — ودفع إلىّ عنوان « الجمعية الإسلامية بفنلندة » فى مدينة هِلسِنْكِى Helsinki ، عاصمة فنلندة . فاجتمعت برئيس هذه الجمعيـــة : السّيد زهور طاهر ، وإمامها : السيّد حكيم ، وببعضِ أعضائها ، غير مرة . وقد لقيتهم أصحاب أوجهٍ طلقة وأنفسٍ منبسطة .

ولم أقنع بالجلوس إليهم ، بل ذهبت إلى دكاكين أغنيائهم . وقد راعنى دكّان لبيع الفرو ، وآخر لبيع المصنوعات الترفيّة ، وثالث لبيع الآثار الشرقية . ثم إن السيّد زهور طاهر دعانى إلى داره وأذن لى فى الدخول على أهله وقدم لى غَداء شرقياً : لحماً مشوياً وأرزاً .

ومن الأحاديث التى دارت بينى وبين القوم زهاء أسبوع خرجت برسالة وجيزة نشرتها فى "مجلة الدراسات الإسلامية"[١]، لأخبر العلماء بوجود هذه الطائفة الإسلامية فى بلاد الشمال وأقفهم على أحوالها .

واليوم أنقل الرسالة إلى العربية . وكان بودى أن أزيد عليها ما جرى لتلك الطائفة منذ سنة ١٩٣٤ حتى سنتنا هذه . إلا أنى لم أرحل إلى فنلندة بعد رحلتى الأولى ، ولم أظفر من طريق المراسلة بشىء يُدوّن .

وقبل نقل الرسالة أحبّ أن أخبرك أن فى إسطونية — وهى قطر آخر من أقطار الشمال على البحر البلطى — فئةً من المسلمين متفرقاً شملهم . وقد سمعت بأمرهم عند مرورى بذلك القطر ، فحاولت أن أهتدى إلى بعضهم ولم أفلح . والعلّة الأولى لهذا أن حكومة إسطونية لم تهيئ لى أسباب الوصول إليهم ، خلافاً لما صنعته حكومة فنلندة . وعسى أن ينشر مستشرقو البلدان الشمالية رسالة فى تلك الفئة .

الرســـالة

فى الرابع والعشرين من شهر أبريل سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف ، أعلنت الحكومة الفنلندية أن الإسلام من الأديان المعترف بها فى فنلندة ؛ وذلك بقرارٍ وضعته لأجل المسلمين المستقرين بها[٢] .

---

(١) Revue des Etudes Islamiques السنة ١٩٣٤ الجلد ١ ص ١ — ٨ باريس ١٩٣٤.
(٢) تصيب هذا القرار بعد الرسالة

وهؤلاء المسلمون من « الترك — التتر » . وهم الضاربون فيما وراء جبال أورال . وقد هجروا إلى الشمال وحلّوا بفنلندة عقب الثورة البلشفية فى روسية . وكان نفر من هؤلاء المسلمين يعرفون فنلندة من باب التجارة ، إذ كانوا ينفقون فيها سلعهم ولا سيما النسائج ، قبل قيام الثورة .

وعدد هؤلاء المسلمين — فى شهر سبتمبر ١٩٣٤ — ستمائة وثمان وأربعون . وأسرهم تزيد على المائة ، وعقدهم منتثر فى سبعَ عشرةَ مدينةً وبلدة . والفئة الكبرى منهم مقيمة بالعاصمة ، ثم بمدينتين هما تِمْپرِى Tempere وتُورْكُو Turku .

وأما حرفتهم الغالبة عليهم فتجارة الفرو والمنسوجات . وفيهم جماعة من الأغنياء . والمُتَعارَف عنهم أنّهم أهل دعةٍ فى الخلق ، واجتهاد فى العمل .

وقد ظفروا إلاّ أقلّهم بالجنسيّة الفنلنديّة ، من بعد ما كانوا من الروس . وتراهم يتمتعون كل التمتع بالحقوق المبذولة للفنلنديين أنفسهم ؛ وذلك بفضل قانون حرية العقائد والعبادات السائر فى فنلندة . ومن هذا أنّ أبواب الوظائف الحكومية غير موصدة فى وجوههم .

إلا أن هؤلاء المسلمين يُفلتون بعض الإفلات من الأحكام الفنلندية . وبيان هذا أنّ لهم إماماً تتمّ على يديه عقود النكاح وتُسجّل لديه المواليد والوفيات ، بحيث لا ينتهى خبرها إلى الحكومة سوى مرة فى السنة على سبيل الإحصاء .

ثم إنهم يحيون حياةً فيها شىء من الاستقلال . ذلك أنهم يؤثرون المصاهرة فيما بينهم ، محتفظين بحكم المهر . غير أنّ نفراً من المسلمين

تزوجوا فنلنديات مسيحيات ، فدخل بعضهن فى الإسلام ؛ وأما اللاتى أبين أن يُسلمن ، فقد وقع بينهن وبين بعولتهن شقاق من أجل الولد ، لما يكون من اضطراب نشأتهم الدينية .

ويُعنى هؤلاء المسلمون بتعليم أولادهم أصول الدين وتلقينهم مبادئ القومية . ولهذا الغرض أنشأوا مدارس يتردد إليها الصبيان والصبايا مرتين فى الأسبوع أو ثلاثاً ، ليتخرّجوا فى أدب الإسلام وتاريخه ، ويقرأوا أخبار الترك ، ويتلوا القرآن باللغة العربية ، ويحفظوا منه آيات الصلاة . وأما لغة التعليم فهى التركية ؛ وحروف هجائها هى الحروف « التركية — اللاتنية » التى وُضعت وشاعت بأمر مصطفى كمال . وأما العربية فلا علم للأحداث إلا بحروفها وتجويدها .

وهذه المدارس معدودة ؛ فواحدة فى هلسنكى وأخرى فى تمبرى تعملان تسعة أشهر فى السنة . وسائر المدارس قائمة فى مدن عددُ المسلمين فيها قليل . ولذلك لا تعمل سوى ثلاثة أشهر ، فيتنقل المعلمون من هذه إلى تلك على مدار السنة .

ويُضاف إلى مسعى المدارس أن المسلمين أخذوا بنظام المحاضرات . وتتناول هذه موضوعات متنوعة : الدين ، والقضية القومية (أى التركية لا الفنلندية) ، والتاريخ « التركى — الإسلامى » . والمحاضرون هم معلمو المدارس ، أو من يجوز بفنلندة من المسلمين عامةً والترك خاصةً ، سيّاحا .

هذا وقد ألف إبرهيم عريف الله — أمين سر « الجمعية الإسلامية الفنلندية » — رسالة باللغة الفنلندية تتصل بالدعاية القومية[٣] .

وليس لهؤلاء المسلمين مرجع دينى معيّن . فقد استقلوا بأنفسهم عن دولة قازان منذ فرارهم من موطنهم عند قيام الثورة البلشفية . وأما قوميّتهم ، فقد صرفوا هواهم عن روسية الجنوبية إلى أنقرة . ودليل هذا أنهم أقبلوا على حروف الهجاء التركية المرسومة بالعلامات اللاتينية على ما أشرت إليه ، وأنهم يرقبون الحركة القومية فى تركية ويقرأون صحفها والكتب الخارجة فيها ، وأنهم — فوق ذلك — يعظّمون عيد الاستقلال التركى (التاسع والعشرين من أكتوبر) ، واليوم القومى (الثالث والعشرين من أبريل) . بقى أن فى كل دار مسلمة — على ما قيل لى — صورة لمصطفى كمال .

ليس فى فنلندة مسجد جامع . ولكن فيها ثلاثة مساجد صغيرة : أحدها فى هلسنكى والثانى فى تمبرى والثالث فى توركو . وحيث لا يوجد مسجد يجتمع المؤمنون رجالاً ونساء فى مسكنٍ لصلاة الجمعة . غير أنّ النساء لا يذهبن جماعاتٍ إلى المسجد إلاّ فى عيد الأضحى وعيد الفطر .

وللمسلمين إمام واحد يعولونه ، ومقرُّه العاصمة : هلسنكى . غير أنه يقصد الحين بعد الحين إلى سائر المدن . فإذا غاب صلى بالناس من المسلمين المتفقهون فى الدين .

---

(٣) نشرت سنة ١٩٣٣ فى هلسنكى ، وعدد صفحاتها ٢٢ ، وعنوانها " ايدل أورال (فى حركة استقلال الترك المقيمين بايدل — أورال) " .

وفى المولد النبوى يتلو المسلمون القرآن باللغة العربية ، ويخطب الإمام فيهم باللغة التركية ، ويقيم الأغنياء الولائم .

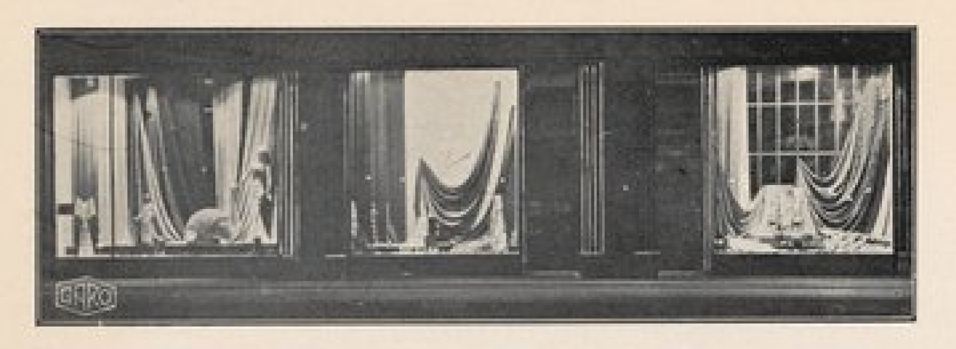
ولا يشرب المسلمون الخمر إلاّ فى الندرة ، مَعَ شدة البرد فى البلاد الشمالية . ولا يُسقَوْن خمرًا فى الأعياد الدينية والقومية على السواء . وقد قيل لى فى لهجة الجزم إن مسلماً واحدًا لم يؤخذ بجنحة السكر من عشرين سنة .

ولا يتشدد المسلمون فى صوم شهر رمضان . ودليل هذا أن الصيام غير واجب فى شهرى يونيه ويوليه، لطول النهار فيهما . وللمسلم إذَنْ أن يصوم شهراً آخر إذا شاء ، تعويضاً .

ولم يحجّ بيت الله إلاّ مسلم واحد . وقد قيل لى إن أسباب الحج لهذا العهد مدعاة للقلق ، وإن الحجاج — على قول مسلمى التركستان — يعاملون فى أثناء رحلتهم إلى مكة « معاملة الحيوانات » (كذا) .

أما حرية المسلمة فتكاد تعدل حرية المرأة الفنلندية . فهى إذن على جانب عظيم من الاستقلال . إلاّ أنّ المسلمين أكّدوا لى أنها لا ترقص مع فنلنديين ، ثم زادوا فى لهجة تغلب عليها الكآبة : « هذه حال قد تزول » .

وعلى حسب القانون الفنلندى لا يحق للمسلمة أن تتزوج وهى دون السابعة عشرة . وأما الخِطْبة فتجرى على أسلوب الخِطبة الفنلندية . غير أنى أجهل هل تبلغ مداها الأقصى — أعنى الملامسة قبل العقد — على نحو لونٍ شائع من ألوان الخِطْبة فى بلدان الشمال .



ظاهر دكان السيّد زهور طاهر

زفاف بنت الإمام

(المسلمون فيه مجتمعون)

قـــرار

من جانب مجلس الحكومة الفنلندية فى إثبات الطائفة الإسلامية المقيمة بفنلندة فى سجلات الطوائف الدينية(٤) .

٢٤ ابريل سنة ١٩٢٥ — هلسنكى

أخبر المسيو ڤيلى أحمد حكيم والمسيو عمر عبد الرحيم المقيمان بهلسنكى وغيرهم من المسلمين ، عددُهم خمس وعشرون مقيمون بهلسنكى وسائر القطر ، مجلسَ الحكومة الفنلندية أنهم أنشأوا جمعية دينية اسمها « الطائفة الإسلامية بفنلندة » ، مستندين إلى الفقرة الثالثة عشرة من قانون حرية العقائد والعبادات . ومقرّ هذه الجمعية فى هلسنكى ، ثم لها لجنة أسماء أعضائها فلان وفلان .

ومع هذا القرار بيان لأصول الدين الإسلامى ، وقانون الطائفة المذكورة :

أنشأ المسلمون جمعية دينية اسمها « الطائفة الإسلامية بفنلندة » . وقد وضعوا بياناً لأصول الدين الإسلامى وقانوناً للطائفة المذكورة وأقروهما بالإجماع .

---

(٤) قد نقل لى هذا القرار من اللغة الفنلندية إلى الفرنسية السيد عريف رامى ، مدرس اللغة التركية وأصول الدين فى المدرسة الإسلامية بهلسنكى .

ا — بيان أصول الدين

١ — التشهد .
٢ — إقامة الصلوات الخمس كل يوم ، والاجتماع يوم الجمعة فى المسجد للصلاة .
٣ — الصوم شهراً فى السنة .
٤ — على الأغنياء أن يعينوا الفقراء .
٥ — على الأغنياء أن يحجوا بيت الله .
٦ — الامتثال لأوامر القرآن .
٧ — المحافظة على صفاء الضمير وسلامة الجسد .
٨ — التزام الصدق والأمانة .
٩ — احترام النفس البشرية ومجانبة الأذى .
١٠— أن يحبّ المسلم لغيره ما يحبّ لنفسه .

ب — قانون الطائفة الإسلامية بفنلندة

§ ١ — المسلمون المقيمون بفنلندة ، الخاضعون للأحكام المذكورة، يكوّنون طائفة .

§ ٢ — الطائفة مكوّنة من أعضاء عاملين ، وأعضاء دون سن الرشد .

§ ٣ — لا يكون العضو عاملاً إلاّ إذا كان مؤمناً . وعلى كل عضو أن يعاون الطائفة على بلوغ غاياتها . ويُعيَّن العضو باقتراح اللجنة التنفيذية .

§ ٤ — يبلغ الشاب سن الرشد فى الثامنة عشرة . ولا يعين عضواً عاملا إلا إذا بلغ هذه السنّ ، وامتحنه الإمام فى الدين .

§ ٥ — للأعضاء العاملين وحدهم الحق فى تدبير شؤون الطائفة .

§ ٦ — للطائفة أن تخلع العضو المرغوب عنه . والخلع يُقرّ بأصوات ثلثى الأعضاء العاملين . وللمخلوع أن يسأل اللجنة التنفيذية الفصل فى أمره خلال ثلاثين يوماً من تسلّمه كتاب الخلع . وفصل اللجنة نهائى .

§ ٧ — يُعيَّن للجنة التنفيذية وسائر « هيئات » الإدارة أعضاء عاملون أمناء . ولا يشغل وظيفة الوعظ إلّا الذين ترشحهم اللجنة التنفيذية .

§ ٨ — تجتمع الطائفة للصلاة يوم الجمعة . وأما أيام الأعياد الدينية والقومية فتحددها اللجنة .

§ ٩ — يَرجع تدبير شؤون الطائفة إلى الجمعية العمومية . وتجتمع اللجنة كلما اقتضى الأمر أو باقتراح مخطوط من قبل خمسة أعضاء . ويدعى الأعضاء الذين لا يقيمون بهلسنكى برسالة مسجَّلة فى مدة لا تقل عن أربعة عشر يوماً قبل اجتماع الجمعية العمومية . ويُدعى الأعضاء المقيمون بهلسنكى فى مدة لا تقل عن ثمانية أيام بإعلانٍ يُلصق بمنضدةٍ معلومة فى حجرة الاجتماع .

§ ١٠ — تجتمع الجمعية العمومية مرة فى السنة (شهر فبراير) .

§ ١١ — لكل عضو صوت . وتُبرم القرارات بالأكثرية . وللرئيس أن يفصل إذا تعادلت الأصوات .

وأما القرارات الدينية فلا تُبرم إلا بأكثرية ثلثى الأصوات .
وتقدم الاقتراحات المتعلقة بالشؤون الدينية إلى اللجنة قبل الموعد المضروب لاجتماع الجمعية العمومية بشهر .

§ ١٢ — لا يُقَر إلغاء الطائفة إلا بأكثرية خمسة أسداس الأصوات .
وإذا أُلغيت الطائفة نُقل ما تملكه الى جمعية الإحسان .

§ ١٣ — يفتتح رئيس اللجنة جلسة الجمعية العمومية . ثم يَنتخب رئيسُها أمينَ سرّها العام . ويراجَع محضر الجلسة فى أثناء انعقادها .

وتكوّن اللجنة التنفيذية من الإمام وأربعة أعضاء ينتخبون عند انعقاد الجمعية العمومية ، ومدة قيام اللجنة ثلاث سنوات .
وتختار اللجنة من أعضائها رئيساً وأمين سرّ عاما لسنة .

§ ١٤ — تجتمع اللجنة بدعوة من الرئيس . وتُبرم قراراتُها إذا حضر ثلاثة من أعضائها ؛ ويراجَع محضر الاجتماع فى أثناء الجلسة .

واللجنة موكول إليها تدبير الشؤون الطائفة فى سبيل مصلحة الطائفة وحدها . ثم إنها مسؤولة عن رعاية ما تملكه وعن تنفيذ جميع القرارات التى تبرمها الجمعية العمومية .

§ ١٥ — يمثّل الطائفة — من الناحية القانونية — رئيس اللجنة . وإذا غاب فالإمام يحل محله . وللرئيس والإمام وحدهما حق التوقيع باسم الطائفة .

§ ١٦— كل عضو من أعضاء اللجنة متّهم أمام محكمة الجنايات يخلع من اللجنة على الفور . وللعضو المخلوع أن يسأل الجمعية العمومية النظر فى شأنه . فتعقد الجمعية على عجل ، ولها أن تُبطل قرار اللجنة .

وللجنة أن تخلع العضو الذى يهمل تأدية واجبه ، أو العضو الذى يحيا حياة غير صالحة ، وذلك بأكثرية ثلاثة أرباع الأصوات.

§ ١٧— يقوم معاونون مطّوعون بتأدية نفقات الطائفة غير المنظورة . ولربما فُتح باب الصَّدَقَة : فكلٌ وما ملكت يده .

§ ١٨— أما حسابات الطائفة فتثبتها لجنة مراجعة فى أثناء خمسة عشر يوماً .

§ ١٩— يعقد نكاح المسلمين بحسب الشريعة الإسلامية . وبحسب هذه الشريعة تسيّر الشؤون الخاصة بالدين .

§ ٢٠— يجرى الدفن على حسب العرف الإسلامى . ويدفن الموتى فى المدفن الذى يختاره أهل الميت ، ويكون المدفنَ الإسلامى على الغالب .

§ ٢١— لا بد من إخبار الإمام بالمواليد والوفيات .

§ ٢٢— على الأهل أن يكلوا إلى الطائفة تثقيف الأحداث ، ويشتركوا بأموالهم فى ذلك بقدر استطاعتهم .

§ ٢٣— اللغة الرسمية للطائفة هى الفنلندية . على أن اللغة القومية ، وهى التركية ، تستعمل عند انعقاد الجمعية واجتماع اللجان .

§ ٢٤— إذا وقع شقاق بين عضوين فلْيُنِبْ كل منهما أحداً عنه . ويُضاف إلى النائبين عضو ثالث يكون منهما بمكان الرئيس . فينظر الثلاثة فى الشقاق . وعلى العضوين المتشاقين أن يخضعوا لحكمهم . وإن لم يُنب العضوان أحداً عنهما مدة ثلاثين يوماً ، أو اختلف النائبان فى اختيار الرئيس ، عَينت اللجنة التنفيذية نفسها الرئيسَ والنائبين .

§ ٢٥— يُنظر فى الأحوال التى لم تثبت فى هذا القانون بمقتضى قانون حرية العقائد والعبادات الصادر فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

هلسنكى ، ٢٤ أبريل ١٩٢٥

(الإمضاء) وزير المعارف



أسرة السيّد عمر عبد الرحيم

(وله ثلاث بنات أخر ، وذلك في سنة ١٩٣٤)



فرقة كرة القدم واسمها : « ألطِن — أورضا »

٢

مكارم الأخلاق

(تعبير أخاذ يرجع إلى الأخلاقيات التقليدية)*

مجمل المبحث : رواج هذا التعبير — مدلوله اللغوى — مصدره — مضمونه — علاقته بالفتوة والمروءة — اتصاله بالجاهلية — الخلاصة : تعبير محضُ إسلامى ، لدن ، مبهم ، أخاذ — الخاتمة .

رواج هذا التعبير

إنك تصيب فى مخلفات الأدب العربى خمسة عشر كتاباً عنوانها : "مكارم الأخلاق" أو نحو ذلك ، على أن تُهمل المؤلفات الفارسية والتركية الموسومة بهذا العنوان ، الجارية على مثال تلك الكتب[1] . وأربعة من هذه الكتب

(*) ألقى هذا المبحث مختصراً على سبيل الإمداد communication فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى رومة ، شهر سبتمبر ١٩٣٥ ، ثم نشر باللغة الفرنسية فى "مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم" فى رومة ، السلسلة ٦ ، المجلد ١٣ الجزء ٥ — ١٠ ، ١٩٣٧ : *Rendiconti della R. Accademia Nazionale dei Lincei, serie sesta* — vol. XIII — fascicolo 5 - 10, 1937 - XV, pag. 411 - 425

(١) دونك جدولا مختصراً فيه إثبات بعض تلك المؤلفات :

١ — فلوجل Fluegel فهرس "المخطوطات العربية والفارسية والتركية المخزونة فى دار الكتب الملكية فى فينة" Wien ١٨٦٧ ج ٣ ص ٢٩١ رقم ١٨٥٩ ، ص ٣٠٨ رقم ١٨٨٢ .

العربية مطبوعة ، أصحابها : الخرائطى(٢) والثعالبى(٣) والباهلى(٤) والطبَرسى(٥) . وخمسة منها مخطوطة ، أصحابها : ابن أبى الدنيا(٦)

ب — " فهرس دور الكتب فى القسطنطينية . . . " *Kataloge oeffentlicher Bibliotheken in Stambul und seinen Vororten nebst Shutari* مجموعة آيا صوفيا ص ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥ .

ج — إعجاز حسين النيسابورى الكنتورى " كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار " كلكته ١٣٣٠ ص ٥٤٨ رقم ٣٠٨٨ .

د — " أخلاق جلالى بلوامع الاشراق فى مكارم الأخلاق " لمحمد بن أسعد دوانى، ط Muhammad Kazini Shirazi كلكته ١٩١١ .

(٢) " مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها " تأليف أبى بكر محمد بن جعفر بن سهل السامرى الخرائطى △ ٣٢٧ . مصر ١٣٥٠ ، ٩٥ ص — مذكور فى حاجى خليفة " كشف الظنون " ط Fluegel ج ٦ ص ٩٨ . ياقوت "معجم الأدباء" ط Margoliouth ج ٦ ص ٤٦٤. بروكلمن Brockelmann " تاريخ الآداب العربية " *G. A. L.* ١٨٩٨ ج ١ ص ١٥٤ . ذ " تكملة " *Suppl.* ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٢٥٠ ، ٩٤٧ .

(٣) " مكارم الأخلاق " لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى △ ٤٢٩ . ط لويس شيخو فى مجلة " المشرق " بيروت ١٩٠٠ العدد ٣ ص ٢٨ إلى ٣١ — مذكور فى بروكلمن ك ك " تكملة " ج ١ ص ٥٠٣ .

(٤) " الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق " لأبى الحسن سلام بن عبد الله . . . الباهلى △ ٥٤٤ . مصر ١٢٩٨ ، ٢٣٠ ص — مذكور فى بروكلمن ك ك " تكملة " ج ١ ص ٤٨١ (اقرأ : الأعلاق لا « الأغلاق ») .

(٥) " مكارم الأخلاق " لرضى الدين أبى على . . . الطبرسى △ ٥٤٨ . لهذا الكتاب طبعات كثيرة : ظ " فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار (دار الكتب المصرية) " مصر ١٩٢٤ ج ١ ص ٣٢ ى ى ؛ بروكلمن ك ك " تكملة " ج ١ ص ٧٠٩ — مذكور فى " كشف الظنون " ج ٦ ص ٩٨ . (مرجعنا فى هذا البحث إلى ط مصر ١٣١١) .

(٦) " مكارم الأخلاق " لأبى بكرين عبد الله . . . بن أبى الدنيا △ ٢٨١ . ظ آلفرت Ahlwardt " فهرس المخطوطات العربية (فى برلين) " *Arab. Hss.* رقم ٥٣٨٨ — مذكور فى بروكلمن ك ك ج ١ ص ١٥٤ ؛ ك ك " تكملة " ج ١ ص ٢٤٧ .

والطبرانى[٧] وابن كنان الدمشقى[٨] والتُستَرى[٩] ، وخامسهم مجهول[١٠] .
وأما الكتب الستة الأخرى فالذى وصل إليه بحثى أنها ضاعت ؛ ولتجدنّها مُثْبَتَةً فى بطون الفهارس المتداولة بين جمهور العلماء[١١] .

---

(٧) مكارم الأخلاق لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى ∆ ٣٦٠ . ظ آلفرت ك ك رقم ٥٣٩٠ — مذكور فى بروكلن ك ك ج ١ ص ١٦٧ ؛ ك ك " تكملة " ج ١ ص ٢٧٩ .

(٨) " مكارم الخلاق لأهل مكارم الأخلاق " لمحمد بن عيسى بن محمد بن كنان الدمشقى ∆ ١١٥٣ . ظ آلفرت ك ك رقم ٣٣١٥ — مذكور فى بروكلن ك ك ج ٢ ص ٢٩٩ ؛ ك ك " تكملة " ج ٢ ص ٤١٠ .

(٩) " مكارم الأخلاق والسياسة " للتسترى (شمس الدين ∆ ؟ ، راجع المخطوطة ص ٢ س ٣) . ظ " فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار (دار الكتب المصرية) " ج ١ ص ٣٦٣ (تصوف وأخلاق دينية) رقم ٩٩٤ ؛ ٣١ ورقة ، ٢١ × ١٧ (رقم ١٣٥٣ أيضاً ، ولكن مرجعنا فى هذا البحث إلى رقم ٤٩٤) .

(١٠) " مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدايع الأوصاف وغرايب التشبيهات " . (إنما الجانب الأول من هذا الكتاب أى « مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » يلحق بمكارم الأخلاق ، وأما الجانب الثانى أى « بدايع الأوصاف وغرايب التشبيهات » فيدخل فى باب « البيان والبديع ») . ظ " فهرس الكتب الشرقية لدار الكتب (فى لَيدِن) " *Dozy, Catalogus cod. orient.*, nº CCCC IX رقم ٤٠٩ .

تنبيه — يذكر آلفرت Ahlwardt (ك ك ج ١٧ ص ١٤ رقم ٥٤٠٣) مخطوطة أخرى جعل عنوانها " مكارم الأخلاق " . وقد تبين لى بعد المراجعة أن صاحب هذه المخطوطة إنما ينقل كلام الطبرسى فى كتابه " مكارم الأخلاق " (المذكور قبل) وقد أورد اسمه فى ص ٨٤ .

(١١) ا — " مكارم الأخلاق " لرضى الدين النيسابورى .
ب — " مكارم الأخلاق " لأبى منصور أحمد محمد بن محمد بن عبد الواحد ابن الصباغ — مذكوران فى " كشف الظنون " ج ٦ ص ١٠٩٨ ؛ آلفرت ك ك ج ٥ ص ١٨ رقم ٣٥ .

هذا فضلاً عن تآليف وقع فيها تعبير « مكارم الأخلاق » عنواناً لباب من الأبواب أو فصل من الفصول . وهذه التآليف أدبية ودينية وأخلاقية وصوفيّة (وتصيبها فى مجرى هذا البحث) . بَقِى أن ذلك التعبير جارٍ على الأقلام جميعها مهما اختلفت منازعها ، قديماً[١٢] وحديثاً[١٣] ؛ حتى الشعراء أداروها على ألسنتهم ، من ذلك قول القائل :

ج — " مكارم الأخلاق " لعبد الملك بن حبيب — مذكور فى " فهرس " أبى بكر بن خير Abu Bequer ben Khair, *Index librorum* ... Saragosse 1894 ص ٢٩٠.

د — " مكارم الأخلاق ومذامّ الأخلاق " لأحمد بن محمد بن خالق البرق— مذكور فى الكنتورى " كشف الحجب ... " ص ٥٤٧ رقم ٣٠٨٧

هـ — " مكارم الأخلاق " لأحمد بن أبى عبد الله بن محمد بن خالد بن عبد الرحمن

و — " مكارم الأخلاق وطيب الأعراق " لسليمان بن بنين — مذكوران فى " معجم الأدباء " ج ٢ ص ٣٢ ، ج ٤ ص ٢٥١ .

(١٢) مثلاً : ابن المقفع " الأدب الصغير " ط أحمد زكى (باشا) الاسكندرية ١٣٣٠ ص ١١ . البيهقى " المحاسن والمساوى " مصر ١٩٣٢ ص ٣٠ . الجاحظ (؟) " كتاب التاج " ط أحمد زكى (باشا) مصر ١٩١٤ ص ٧١ . ابن خلدون " مقدمة " بيروت ١٩٠٠ ص ٣٠٣ ، ٣١٠ . وغيرهم كثير ، وسترد أسماؤهم فى سياق الاستدلال .

(١٣) مثلاً : " المجلة الأسيوية " *J.A.* باريس اكتوبر — ديسمبر ١٩٣٤ العدد ٢٢٥ ص ٢٦٠ . بطرس البستانى " قصة أسعد الشدياق " بيروت ١٨٧٨ ط ثانية ص ١٢٢ . محمد عبده " شرح نهج البلاغة " مصر مطبعة الرحمانية ج ١ ص ٢٢٠ . محمد كرد على " الإسلام والحضارة العربية " مصر ١٩٣٤ ص ٢٨١ . أنستاس مارى الكرملى " بحث ... " مجلة " المقتطف " يوليه ١٩٣٥ ص ١٢٦ . خليل ثابت " ياقوت صروف " " المقتطف " ديسمبر ١٩٣٧ ص ٥١٤ . بشر فارس مجلة " الهلال " ابريل ١٩٣٤ ص ٦٩٨ . ن مجلة " الرسالة " السنة ٧ ص ٢٣٣ . هذا وقد ورد هذا التعبير فى كتب الأخلاقيات المؤلفة على الطريقة الإسلامية النقلية فى هذا العهد ، فنزلت فيها منزل « مبدإ » إسلامى : ظ صالح حمدى حماد " أدب الإسلام " مصر ١٩٠٧ ص ١٩٩ ؛ على فكرى " تقويم الأخلاق " مصر ١٩٣٥ (ظ الغلاف) . ويضاف إلى هذه الكتب مسرحية محمود شكرى : " رواية مكارم الأخلاق " مصر ١٩٢٩ .

لو أننى خُيِّرت كلَّ فضيلة   ما اخترت غير مكارم الأخلاق[١٤].

ثم إن ذلك التعبير انسلَّ من مطاوى الكتب ليجرى فى مذاهب الحياة العامة . ففى مصر اليوم جماعة اسمها « جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية » أنشأها الشيخ زكى الدين سَنَد، سنةَ إحدى وتسعمائة وألف، وجعل لها مجلة كان لها شأن عند الأزهريين فى ذلك العهد[١٥] . والغاية التى تجرى إليها هذه « الجمعية » تعليم عامّة الناس وإرشادهم .

فإن كان ذلك كذلك ، فما الذى نفث فى تعبير « مكارم الأخلاق » هذا السحر الأخّاذ بالأقلام والأذهان ؟

مدلوله اللغوى

مما لا يخفَى على البصير باللغة أن لفظة أخلاق جمع لخُلْق أو خُلُق[١٦] . ومؤدّى هذين اللفظين ، على السواء : الطبع والسجيّة[١٧]. وفى القرآن شاهد هذا : « وإنّك لعلى خُلُق عظيم » ، « وإنْ هذا إلاّ خلق الأوّلين . »[١٨] وفى الأدب كذلك[١٩].

---

(١٤) الاصفهانى " محاضرات الأدباء " مصر ١٩٠٨ ج ١ ص ١٣٢ . ثم :
أحب مكارم الأخلاق جهدى   وأكره أن أعيب وأن أعابا
(للماوردى " أدب الدنيا والدين " مصر ١٣٣٩ ص ١٩٥) . ثم ز بيت عصرى لحافظ إبراهيم " ديوان " مصر ١٩٣٧ ج ١ ص ٢٨٠ ؛ وآخر لخليل مطران ، صحيفة " الأهرام " ٣٧/٤/٢٩ .

(١٥) على ما أخبرنى به الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول.

(١٦،١٧) ظ المعجمات مادة خ ل ق . (وكذلك الخليقة) .

(١٨) سو ١٨ آ ٤ ؛ سو ٢٦ آ ١٣٧ .

(١٩) مثلاً : الجاحظ " البيان والتبيين " مصر ١٣٣٢ ج ٢ ص ٥٢ . " أدب الدنيا والدين " ص ١٨٧ . البحترى " ديوان " بيروت ١٩١١ ص ١٧٧ ، ١٨٦،١٨٢ .

ومما لا حاجة به إلى التدليل أن الأخلاق لفظة شاعت فى كتب الفلاسفة على تباين مشاربهم ، فقيل « علم الأخلاق » و « تهذيب الأخلاق » و « الحكمة الخلقية »[٢٠] و « الأخلاقيات »[٢١] . ويناظر هذه التعبيرات : فى الفرنسية morale, éthique وفى الإنجليزية ethics وفى الألمانية Sittenlehre, Ethik .

وأما لفظة المكارم ، فكأنها دون لفظة الأخلاق وضوحاً ، وإليك بيان ذلك :

إن الكرم نقيض اللؤم أصلاً[٢٢] (وقد أفاد الجود من قبيل الاتساع فى القول[٢٣]) . والكرم ومشتقاته المختلفة تحتمل معنى الرفعة فى القرآن (نحو « الكريم » وهو من أسماء الله وصفاته ، و « أكرم »

(٢٠) التهانوى " كشاف اصطلاحات الفنون " كلكته ١٨٦٢ ص ٤٤٨ .

(٢١) الشهرستانى " الملل والنحل " لندن ١٨٤٢ ج ٢ ص ٢٧٨ ومصر ١٣٤٧ (بهامش " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " لابن حزم) ج ٣ ص ٢٧ .

(٢٢) " الصحاح " مصر ١٢٩٢ ج ٢ ص ٣٢٩ . " لسان العرب " ج ١٥ ص ٤١٤ . " تاج العروس " ج ٩ ص ٤١ . ومن ذلك : الكريم نقيض اللئيم (ظ الثعالبي " مكارم الأخلاق " ص ٢٩ ، وقول المتنبى " ديوان " بيروت ١٣٠٥ ص ٣٨٧ :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الشاعر القديم " المفضليات " مصر ١٩٢٦ ص ٨٢ « ... أهين اللئيم وأحبو الكريما » .

(٢٣) ابن سيده " المخصص " ج ٣ ص ٢ . ز " حماسة أبي تمام " مصر ١٣٢٢ ج ٢ ص ١٢٢ (الشرح) ؛ وفى الشعر القديم : ذ ج ٢ ص ١٩٨ .

وهو من صفات الله[٢٤]) . وأما لفظة المكارم (ج مكرُمة ، وقيل : مكرُم[٢٥]) فتنطوى على معنى يقف من الضّعة موقف الضد من الضد[٢٦] ؛ وإليك بيتاً مصداقاً لذلك :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا   واللؤم تحت عمائم الأنصار[٢٧] .

فالمكارم فى هذا البيت مقرونة بلفظة العلا[٢٨] ، فضلاً عن أنها تقابل اللؤم . وقد كان معنى العلا يندرج تحت لفظة المكارم من زمن بعيد ،

---

(٢٤) ظ " القرآن " مثلاً : سو ٢٥ ، آ ٧٢ ؛ ٤٩ ، ١٣ ؛ ٥٥ ، ٢٧ ، ٧٨ ؛ ٥٦ ، ٧٦ ؛ ٨٠ ، ١٥ ؛ ٩٦ ، ٣ .
وتأمل قول حسان بن ثابت (" شرح ديوان ... " مصر ١٩٢٩ س ٣٧٩) :

لم يولوا حتى أبيدوا جميعا   فى مقام وكلهم مذموم
بدم عانك وكان حفاظا   أن يقيموا ، إن الكريم كريم

(٢٥) " الصحاح " و " لسان العرب " مادة ك ر م : « قال الكسائى : المكرم والمكرُمة ، قال : ولم يجئ على مفعل للمذكر إلا حرفان نادران لا يقاس عليهما : مكرم ومعون » ؛ « وقال الفراء : هو جمع مكرمة ومعونة وعنده ان مفعلا ليس من أبنية الكلام » .

(٢٦) تأمل قولهم : « أكرمنا ولا تهنا » (الواحدى " أسباب النزول " مصر ١٣١٦ ، س ٢٤٣) .

(٢٧) " الأغانى " مصر ١٢٨٥ ج ١٣ س ١٤٨ .

(٢٨) ويقول المتنبي (" ديوان " س ٥٥٣) :

فلما أنخنا ركزنا الرما   ح بين مكارمنا والعلى

ثم انظر إلى قول الشاعر القديم (" المفضليات " مصر ١٩٢٦ س ٨٢) : « وأبى العلى بالمكرمات ... » ، وقول أبى سعيد الرستمى (الثعالبي " مرآة المروءات " مصر ١٨٩٨ س ٢٢٧) : « وأنت أخو المكارم والعوالى » . وتأتى لفظة الخيرات بدلا من لفظة العلا أو المعالى (الزمخشرى " الفايق " حيدر آباد ١٣٢٤ ج ٢ ، س ١٩٨) : « يا عمَر الخيرات والمكارم » .

ألا تذكر قول الشاعر، شاعر وفد بنى تميمٍ، عند مفاخرة الرسول :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا فاخرونا عند ذكر المكارم[٢٩] ؟

ولعل الخوارزمىّ نظر إلى مِثل هذا البيت يوم جعل عنوان كتابٍ من كتبه : " المكارم والمفاخر " .

مصدره

إنّ جلّ من تكلموا على « مكارم الأخلاق » استندوا إلى هذا الحديث النبوى : « إنَّمَا بُعِثْتُ لِأتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاق »[٣١] . وقد وقع هذا

(٢٩) " أسباب النزول " ص ٢٩١ .

(٣٠) وأما نقل تعبير مكارم الأخلاق إلى اللغات الأجنبية ، كالفرنسية مثلاً ، فمن الانحراف عن الدقة أن يقال bonnes mœurs (= الأخلاق الحسنة) ؛ (ظ مثلاً : كارا دى فو Carra de Vaux " دائرة المعارف الإسلامية " *E. I.* ط أولى ، هولندة ، مادة " أخلاق ") . وللألمانى آلفرت Ahlwardt ، " فهرس الكتب العربية ... " ج ٥ ص ٤ س ٢ ، ترجمة أخرى أقرب إلى الصواب وهى : gute und edle Eigenschaften ؛ فصفة edle (= شريفة) أدق من صفة bonnes (= حسنة) . والترجمة الأولى ، وهى الشائعة حتى اليوم ، تنحرف عن الدقة لا من ناحية اشتقاق اللفظين : مكارم وأخلاق ، ولكن من ناحية مدلوليهما متى اقترنا . وعندى أن « الأخلاق الحسنة » دون « مكارم الأخلاق » . والترجمة الوافية لهذا التعبير هى : éminentes vertus (= الفضائل الرفيعة) .

(٣١) اطلبه فى المتّقى " كنز العمال " حيدر آباد ١٣١٢ ج ٢ ص ٥ رقم ٩١ (عن " السنن " للبيهقى) . ولفظ هذا الحديث فى الزرقانى " شرح الموطأ " مصر ١٣١١ ج ٤ ص ٩٧ : « والطبرانى عن جابر مرفوعاً : ان الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال » .
ولهذا الحديث سلطانه اليوم : يُستشهد به (مثلاً : عبد العزيز البشرى " أعظم يوم ... " مجلة " الرسالة " السنة ٧ ص ٤٩١) . ويتخذ ، فى مصر على الأقل ، تحفة خطية تعلق فى البيوت والحوانيت على سبيل التحلية والتبرك والتعوذ .

الحديث فى سياق تآليف القوم موقع النغم الحادى Leitmotiv فى مجرى لحنٍ من الألحان . وثمة بعض أقوال منسوبة إلى الرسول فيها ذلك التعبير[٣٢] ، ثم قول منسوب إلى علي[٣٣] وآخر إلى

(٣٢) وهى (أى التى عثرتُ عليها) :

ا — « مكارم الأخلاق من أعمال (أهل) الجنة » (" كنز العمال " ج ٢ ص ٢ رقم ١ (عن " الأوسط " للطبرانى) . ز ابن أبى الدنيا " مكارم الأخلاق " ص ٢ ؛ السلمى ٥ ٤١٢ " كتاب الفتوة " خ آيا صوفيا ٢٠٤٩ ص ٨٠ [ظ بعد (ح) ٥٩] .

ب — « حفّ الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب » . (السهروردى " عوارف المعارف " مصر ١٣٤٨ ، بهامش " إحياء علوم الدين " ج ٢ ص ٣٤٣) . ز " إحياء . . . " ج ٢ ص ٣١٤ : « إن الله حفّ الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ... » ؛ ظ هنا " إحياء " ض ك (ح) رقم ٣ من " المغنى عن حمل الأسفار ... " لزين الدين العراقى .

ج — « إن الله تبارك وتعالى خص رسوله بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم » (الطبرسى " مكارم الأخلاق " مصر ١٣١١ ص ٢٩٢) .

د — « إن مكارم الأخلاق التزاور فى الله وحق على المزور أن يقرب إلى أخيه ما تيسر عنده وإن لم يجد عنده إلا جرعة من ماء . وإن احتشم أن يقرب إلى أخيه ما تيسر لم يزل فى مقت الله تعالى يومه وليلته » (السلمى ض ك) .

وتجد أقوالا أخرى فى " كنز العمال " ج ٢ ص ٢ رقم ٢ (عن " شعب الايمان " للبيهقى) ، ص ٥ رقم ١١٣ (عن " المستدرك " للحاكم) ، ص ١٣٤ ى رقم ٣٢٦٨ (عن " تاريخ بغداد " لابن النجار و " دلائل النبوة " للبيهقى و " المستدرك " للحاكم) .

هـ — ثم ظ ما يأتى من الحواشى .

(٣٣) « إن الله جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم » (" أدب الدنيا والدين " ص ١٩٥) .

عائشة[٣٤] وآخر إلى جبريل[٣٥] .

وإذا نحن انصرفنا — أوّل الأمر — إلى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول لم نصبها فى الكتب الستّة ، كما استبان لك من الحواشى . ومما أسوقه — فوق هذا — أنى سألت الأستاذ المستشرق ا . ى . فِنْسِنْك WENSINCK هل عثر على ذلك التعبير فيما لَمَّ من أشتات الأحاديث التى رتّبها فى « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوىّ » ؟ فكتب إلىّ — حفظه الله — يقول : « لم يرد تعبير مكارم الأخلاق إلا مرةً واحدةً فى المعتمد من كتب الحديث ، وذلك فى قصة إسلام أبى ذرّ ، والتعبير من كلام أخى أبى ذرّ »[٣٦] .

---

(٣٤) « إن مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث ، وصدق البأس فى طاعة الله ، وإعطاء السايل [السائل] ، ومكافاة الصنيع ، وصلة الرحم ، وأداء الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء . » (ابن أبى الدنيا " مكارم الأخلاق " ص ٤ م) . ولهذا الحديث روايات تختلف ألفاظها شيئاً : ط ، ش ك ، و" كنز العمال " ج ٢ ص ١٣٥ رقم ٣٢٧٦ . (إن صاحب " كنز العمال " دوّن هذا الحديث على وجه آخر فى بعض ألفاظه ، منسوباً إلى الرسول ، عن " شعب الايمان " للبيهق ، وذلك فى موضع آخر : ج ٢ ص ٢ رقم ٢ . وكذلك صنع الخوارزمى ، " المكارم والمفاخر " ص ٣١ ؛ والسهروردى ، ج ٢ ص ٣٢٩ ى .)

(٣٥) « روى محمد بن حارث الهلالى أن جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنى أتيتك بمكارم الأخلاق فى الدنيا والآخرة ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (" مكارم الأخلاق " خ ليدن ص ٢ م — ٣ . " أدب الدنيا والدين " ص ١٩٥) . ومما يتصل بأمر هذا الحديث ما فى " عوارف المعارف " ج ٣ ص ١٠٠ : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق ، فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(٣٦) المستشرق فنسنك هو الجامع المجتهد للحديث الصحيح ، وصاحب « مفتاح كنوز السنة » (مصر ١٩٣٣ ، نقله محمد فؤاد عبد الباقى إلى العربية)

وإذا أنت أمهلت عند الحديث الواقع فى سياق تآليف المسلمين موقع النغم الحادى فى مجرى لحنٍ من الألحان، فقلتَ بأنى لم أذهب فى تمحيصه المذهب المرضىّ، إذ لم أنظر فى إسناده؛ قلتُ إنى لا أعرض لهذا الحديث على جهة اعتبار حكمٍ من أحكام الشرع وتلقّى أصلٍ من أصول الإسلام وإثبات أدبٍ من آداب السنّة. إنما الذى يعنينى من هذا الحديث ورود تعبير «مكارم الأخلاق» فيه. وهبْنى أثبتّ صحة ذلك الحديث أو ضعفَه أو علّته، من طريق المراجعة، فثمّة حقيقة لا تدفع؛ وبيانها أن ذلك الحديث على أقلام المسلمين دوّار. ومن هنا تزن مقدار استيلائه على أذهانهم، سواء كان صحيحاً أو موضوعاً، متّصلاً أو منقطعاً، منقولاً على طريقة كذا أو كذا.

أضف إلى هذا أن هنالك حديثاً ينافس ذلك الحديث من جهة المعنى والأداء جميعاً، وحروفه: «بُعثت لأتمم حسن الأخلاق»،

والمشرف على طبع "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى" ليدن ١٩٣٤ ى ى، وهو معجم تفصيلى لمفردات الأحاديث المدونة فى «الكتب الستة ومسند الدارمى وموطإ مالك ومسند أحمد بن حنبل». وهذه على حد قول الشيخ أحمد محمد شاكر — من ذوى البسطة فى علم الحديث لهذا العهد عندنا (ظ "مفتاح كنوز السنة" صفحة ظ، والكلام على الثمانية الأولى) —: «هى أصول السنة، ومصادرها الصحيحة الموثوق بها، ويندر أن يكون حديث صحيح خارجاً عنها ليس موجوداً فى أحدها». ز "مقدمة الكتاب" ك ك لرشيد رضا.

وبعد، فاليك قصة إسلام أبى ذر: «... وكان أبو ذرّ لما بلغه مبعث النبى صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب الى هذا الوادى فاسمع من قوله فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق...» ظ البخارى "صحيح" ليدن ١٩٠٧ ى "كتاب الأدب" باب ٣٩ ص ١٢١ . ز ذ "كتاب مناقب الأنصار" باب ٣٣ ص ٢٣؛ مسلم "صحيح" القسطنطينية ١٣٣٤ ص ١٥٥ ى.

وهو مما جاء فى "الموطأ" للإمام مالك(٣٧). فانظر كيف ورد فيه تعبير «حسن الأخلاق» بدلاً من تعبير «مكارم الأخلاق» الوارد فى الحديث الذى خرّجه البيهقى فى "السنن". ورواية الإمام مالك أعلى، لأن "الموطأ" عند جمهور العارفين من أمّهات المسانيد، على حين لا يظفر كتاب البيهقي بمثل هذه الثقة.

وإذا بدا لك بعد هذا أن تعدل عن النقد الخارجى critique externe وهو النظر فى الأسانيد إلى النقد الباطنى critique interne وهو النظر فى الأسلوب، فاعلم أن أسلوب هذا الحديث محض إسلامي. ألا ترى الرسول كيف حثّ صحابته على التزام حسن الأخلاق(٣٨)؟

---

(٣٧) مصر ١٣٤٨ ج ٢ ص ٢١١ "كتاب حسن الخلق": فى باب «ما جاء فى حسن الخلق»: «عن مالك أنه قد بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعثت لأتمم حسن الأخلاق». ز "كنز العمال" ج ٢ ص ٥ رقم ٩٢: «إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق» (ابن سعد عن مالك ابن أنس بلاغا). وهنالك رواية: «صالح الأخلاق» بدلا من «حسن الأخلاق»:
ا — «بعثت لأتمم صالح الأخلاق» (ابن أبى الدنيا "مكارم الأخلاق" ص ٢).
ب — «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» (الطبرانى "مكارم الأخلاق" ص ٢. كتاب "أدب الاملاء والاستملاء" جمعه عبد الكريم بن محمد ابن منصور السمعانى، خ مصور، برلين *ms. sim. or. 53* ص ٢٢).

(٣٨) مثلاً: ا — «ومن خياركم أحاسنكم أخلاقاً» (البخارى "صحيح" "أدب" باب ٣٩. مسلم "صحيح" "فضائل" باب ٦٠. الترمذى "سنن" "بر" باب ٤٧. ابن حنبل "مسند" مصر ١٣١٣ ج ٢ ص ١٦١، ١٨٩، ١٩٣، ٢١٠).
ب — «إن من أحبكم إلىّ يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً» (الترمذى كك "بر" باب ٧١). ثم ظ "مكارم الأخلاق" خ ليدن ص ٣ ى ى؛ ابن أبى الدنيا "مكارم الأخلاق" ص ١ ى ى؛ ابن جعدويه "مرآة المروءات" خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ص ٤٣؛ الخرائطى كك ص ٩٢.

وصفوة القول أن هذا التعبير ليس من آثار النبي المقطوع بوجودها في الكتب المعتبرة؛ ذلك أن الحديث بحروفه كلها، أعني «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، لم تخرّجه الأئمة الستة ومن في طبقتهم، على حسب استخراج المستشرق فِنْسِنك.

وكيفما كانت الحال فإن الاستشهاد في اللغة بلفظ الحديث موضع نظر؛ وقد فصّل هذا عبد القادر بن عمر البغدادي في مقدمة "خزانة الأدب".

ولك أن تقول، بعد هذا كله، إنّ ذلك التعبير اتفق له — في مستهل الإسلام — أن يدور على لسان أخي أبي ذرّ، كما مرّ بك(٣٩).

على أنّ قصة دوران هذا التعبير على لسان أخي أبي ذر مشكلة من المشكلات. وبيان هذا أنه من المستحيل أن نعرف هل جاءنا ما أُثر عنه بحروفه. وأما أقوال عليّ وعائشة (ثم جبريل) فإنما تُفلِتُ جميعاً من النقد، إذ لا يدري أحد ما قدر صحتها، فضلاً عن أن بعضهم ينسبُ قول عائشة إلى الرسول، على ما رأيتَ في الحواشي.

إلا أنّ هذا التعبير، وإن بدا غريباً عن الحديث المدوّن في المعتمد من المسانيد، لَيلحقُ بلغة الاسلام. ومما يعزّز هذا الرأي أنّ الذين عالجوا مكارم الأخلاق لم يوردوا — فيما أعلم — نصّا جاهليا فيه التعبير الذي يشغلنا، مَعَ ما عُرف به كتاب العرب، صنفوا أو ألفوا، من استقصاء للأخبار واستخراج للمخبّآت.

والنتيجة أن هذا التعبير ينحدر — عند المسلمين — من الحديث. وربما انحدر — عند نفر منهم — من قول عائشة أو قول علي

(٣٩) وفي "الأغاني" ج ١٦ ص ١٠٦ أنّ عدي بن حاتم طيّ نطق بهذا التعبير.

(أو قول جبريل) . ثم إنَّ هنالك فئة من الكتاب لم يرجعوا فى كلامهم على مكارم الأخلاق إلى الحديث النبوى المذكور ولا إلى قول عائشة أو غيرها . بل تارةً يوردون التعبير على أنه تأويل لآية قرآنيـة أو تذييل لحديث نبوى ، على ما ترى فيما يأتى بعد هذا الفصل (إلا أن هؤلاء الكتبة يصنعون هذا وأذهانهم — فيما يغلب على الظن — مشغولة بقول النبى : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ») ، وتارةً يُهملون ردَّها إلى أصل من الأصول ، فكأنَّ العبارة إذن مستقرة ثابتة لا تحتاج إلى الجدال عنها ولا التأييد لها .

مضمونه

مما لا مجال فيه للشك أن من يكتب فى مكارم الأخلاق يجرى إلى إكبار الفضائل الإسلامية وإغراء الناس بالإقبال عليها ، اقتداء بالرسول ؛ بحيث تأتى كتابته وعظاً وإرشاداً . من ذلك قول ابن أبى الدنيا فى فاتحة كتابه المخطوط (ص ٥) : « ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا فى كل خصلة من الخصال التى ذَكَرَتْ (يعنى عائشة أم المؤمنين فى الحديث المنسوب إليها) ، رضوان الله عليها ، بعض ما انتهى إلينا عن النبى وعن أصحابه ومَن بعدهم من التابعين وأهل الفضل والذكر من العلماء ، ليزداد ذو البصيرة فى بصيرته ، وينتبه المقصر عن ذلك من طول غفلته ، فيرغب فى الأخلاق الكريمة ، وينافس فى الأعمال الجميلة التى جعلها الله عز وجل حليةً لدينه وزينةً لأوليائه ... » .

ومما يورث الملالة أن أسرد هنا ألوان الفضائل التى يُثبتها كل كاتب وأن أُعارض بعضَها ببعض . وعلى أيَّة حال فرؤوس تلك الفضائل

— على الوجه الغالب — التقوى والجود والحلم والشجاعة والصدق والصبر والعفة والحياء ، إلى غير ذلك مما يلائم نزعات الكاتب نفسه .

وَلَأَوْقَعُ فى النفس من سرد هذه الفضائل سرداً يجعل البحث آخذاً بالظواهر دون البواطن ، أن ننظر كيف تصوّر الكتّاب واحداً واحداً مضمون التعبير :

يورد الغزالى فى " إحياء علوم الدين " والسهروردى فى " عوارف المعارف " والطبرسى فى " مكارم الأخلاق "[٤٠] أحاديث نبوية (ليست فى المسانيد المعتبرة كما قدمنا) ، يسوق فيها الرسول مكارم الأخلاق .

ويرى غيرهم — مثل صاحب " العقد الفريد "[٤١] — أنّ تفاريق مكارم الأخلاق تلتقى فى الآية : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وكأنهم بهذا يُولّون بأذهانهم ناحية القولة المنسوبة إلى جبريل ، فيما سبق من الكلام . وأما الخوارزمى فيرى أن النبىّ قد « جمع من مكارم الأخلاق ما كان متفرقاً فى الأنبياء »[٤٢] .

وأما صاحب المخطوط الموسوم بـ " رسالة فى خلق الإنسان " (وهو مجهول) فإنه يذكر الآية نفسها (« خذ العفو ... ») ويضيف

---

(٤٠) " إحياء " ج ٢ ص ٣١٤ . " عوارف " ج ٢ ص ٣٣٠ . ز " كنز العمال " ج ٢ ص ٢ رقم ٢ . " مكارم الأخلاق " مصر ١٣١١ ص ١٤٤، ٢٩٢ .

(٤١) ج ١ ص ٢٧٠ . ز " رسالة فى خلق الإنسان " (خ برلين رقم ٥٤٠٤) ص ٢٤ ؛ ضياء الدين الموصلى (ابن الأثير) " المثل السائر " مصر ١٣١٢ ص ٢١٢ س ١٧ ى ى .

(٤٢) " المكارم والمفاخر " ص ٣١ : « وكان فيه صلى الله عليه وسلم حلم ابرهيم وزهد عيسى وغلظة موسى وشدة نوح وصبر أيوب وسعة سليمان ... » .

إليها غيرها ، ثم يلحق بها جميعاً حديثاً طويلاً من الإنجيل إرادةَ التمثيل[٤٣] .

وأما ابن أبي الدنيا فيبنى رسالته على قول عائشة ، ويعزز تفصيله لقولها بالمأثور عن النبيّ والخلفاء وعظام الناس ، على ما تبيّن لك من فاتحة كتابه .

وثمّةَ أمثال الخرائطى والطبرانى ، وهما يسوقان — من قبيل التَّحَكُّم arbitrairement — عدة فضائل يقوم عليها تدبير الرجل لنفسه فى أمر دينه ودنياه ، مستشهدين بأحاديث نبوية . وعلى هـذا يجرى الغزالىّ دفعةً أُخرى ، جاعلاً مكارم الأخلاق عنواناً لكلامه أو مغفلاً ذلك[٤٤] .

---

(٤٣) س ٢٤ م — ٢٥ م : « فصـل فى مكارم الأخلاق : هى سـبعة : عفوك عمن ظلمك ، وإعطاؤك من حرمك ، وصلتك من قطعك ، وإحسانك إلى من أسا عليك [أساء إليك] ، ونصيحتك من غشك ، وحلمك على من أغضبك . وأصل هذه السبعة قوله تعالى لنبيه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (سو ٧ آ ١٩٨) . وقال تعالى : [و] لا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (سو ٤١ آ ٣٤) . وقال تعالى : ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (سو ٤٢ آ ٤١) . وقال تعالى فى وصفهم : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (سو ٢٥ آ ٦٥) . وقال المسيح : سمعتم ما قيل ، يعنى فى التوراة : العين بالعين ، والسن بالسن . وأنا أقول لا تقاوموا الشر بالشر ولكن من لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الآخر ، ومن رام أخذ ثوبك فزده إزارك ، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلان [ميلين] ، ومن سألك فأعطه ، ومن اقترض منك فلا تمنعه . سمعتم ما قيـل [للأولين] أحب قريبك وأبغض عدوك ، وأنا أقول لكم أحبوا أعداءكم ، الخ . » ز « إنجيل متّى » الأصحاح ٥ ، الآية ٣٨ ى ى (أرشدنى إلى المرجع فى « الإنجيل » الأستاذ الأب أنستاس مارى الكرملى) .

تنبيـه — لهـذا المخطوط : « رسالة فى خلق الإنسان » ظ آلفرت « فهرس... » ج ٥ س ١٦ رقم ٥٤٠٤ . وفى المخطوط حديث عن الأخلاق المذمومة والأخلاق المحمودة . وصاحبه (وهو مجهول) لاحق للبيهقى ٤٥٨ ﮪ صاحب « السنن الكبير » ، إذ يذكره فى س ١٢ .

(٤٤) ج ٣ س ٤٣ ى ى ، س ٣١٢ ى . وعلى هذا أيضاً « الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق » للباهلى .

وأما الطبرسى فيبسط الفضائل على طائفة كبيرة من آداب الإسلام ، زيادةً على عباداته . ومن هذه الآداب : كيف يشرب المؤمن وكيف يأكل . ألا تراه يقول (ص ٥) : « ونحن نذكر تفصيل مكارم أخلاقه (يعنى الرسول) فى أحواله وتصرفاته وجلوسه وقيامه وسفره وحضره وأكله وشربه خاصةً ... » ؟

وأما المتكلّمون — أمثال الماوردى[٤٥] — فيستعملون تعبير « مكارم الأخلاق » مدخلاً إلى الفحص عن مختلف الفضائل . وأما الأخلاقيون ، السالكون مسلك حكماء اليونان ، فيجعلون التعبير كالشعار لكتابتهم ويهملون الجانب الدينىّ منه . مثال ذلك قول ابن مِسكويه فى فاتحة كتابه "تهذيب الأخلاق[٤٦]" : « الحمد لله الذى أرسل نبيه ... متمماً لمكارم الأخلاق » . ومما يدخل فى هذا الباب مؤلَّف شمس الدين التسترى . إلا أن التسترى جمع بين مكارم الأخلاق والسياسة ، فجعل هذه (ويريد بها تدبير معاملة الناس بعضهم لبعض) حاصلةً من الحكمة ، والحكمة عنده إحدى مكارم الأخلاق[٤٧] .

(٤٥) "أدب الدنيا والدين" ص ١٧٨ ى ى .

(٤٦) مصر ١٣١٧ ص ٢ (وقيل : مسكويه. ظ بروكلمن ك ك "تكملة" ج ١ ص ٥٨٢) . ز "تهذيب الأخلاق" المنسوب إلى الجاحظ ط محمد كرد على دمشق ١٩٢٤ ص ٨ .

(٤٧) فائدة — المعلوم أن الفضائل عند أصحاب الحكمة الخلقية النظرية من العرب أربع : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة . والأولى حاصلة من اعتدال قوة « النفس الناطقة » ، والثانية من اعتدال قوة « النفس الشهوانية » ، والثالثة من اعتدال قوة « النفس الغضبية » ، وسائر الفضائل بالإضافة إليها جميعاً . ظ ابن مسكويه "تهذيب الأخلاق" ص ١٣ — ١٦ ؛ ابن سينا "علم الأخلاق" فى "مجموعة رسائل" مصر ١٩١٠ ص ١٩٢ ؛

"تهذيب الأخلاق" المنسوب إلى الجاحظ ص ١١ ، ٤٥ ؛ "إحياء . . . " ج ٣ ص ٤٧ ى ى . ز قول كارا دى فو Carra de Vaux فى " دائرة المعارف الإسلامية " ط أولى ، مادة " أخلاق " ، الفقرتان الأخيرتان .

وبعدُ ، فصاحبنا التسترى هو إلى الحكمة النظرية أميل منه إلى الأخلاقيات العملية . وهو ممن أشرب تعاليم اليونان كما يبدو من كتابه المخطوط . فتراه يهمل العنوان الذى جعله للكتاب أى " مكارم الأخلاق والسياسة " ليندفع فى تحليل قُوى النفس تحليلا نظرياً (« اعتدال القوى الناطقة والقوى الغضبية والقوى الشهوانية ») . وفى رأيه (ص ٢ م) أنه : « إذا اعتدلت القوة الناطقة (= « مبدأ الفكر ») حصل منها فضيلة الحكمة ، وإذا اعتدلت القوة الغضبية (= « مبدأ دفع المنافر ») وأطاعت القوة الناطقة حصل منها فضيلة الشجاعة ، وإذا اعتدلت القوة الشهوانية (= « مبدأ جذب الملايم ») وانقادت للقوة العاقلة حصل منها فضيلة العفة . واعلم أن العدالة أشرف الفضايل . . . وباقى الفضايل بالنسبة إليها . . . » . فهل يعدّ التسترى هذه الفضائل العناصر الأصلية لمكارم الأخلاق ؟ انه من المتعذر عليك أن تشك فى الأمر ، لأن التسترى يسرد بعد ذلك « أمراض هذه القوى » (ص ٣ — ٤) ، ويتزلق إلى الكلام على السياسة أى التدبير (= « النظر فى حال المال : اعتبار الدخل واعتبار الخرج واعتبار الحفظ . . . » ص ٤ م — ٥) ، ومنه إلى الحديث عن « وجه الحاجة إلى التمدن : الملبس والمسكن والسلاح » (ص ٥ م — ٦ م) ، حتى يبلغ هذا الفصل الاجتماعى (ص ٧) : « ولما كانت دواعى أفعال الناس مختلفة وحركاتهم إنما تتوجه إلى مقاصد مختلفة فلو أهملوا طبايعهم لم يتصور منهم التعاون entr'aide ، لأن المتغلب كان يستعمل الباقين فى مقاصده وأغراضه من غير أن يساعدهم ، ويقع التنازع المؤدى إلى الفناء والفساد . فلذلك احتاجوا إلى تدبير يترك لكل واحد منزلته ويعطيه حقه ويشغله بصناعة يكفلها ويصرف عنه شر الباقين . وذلك التدبير هو السياسة ، والسياسة محتاجة إلى الشريعة لمعرفة قوانين توجب نظام معاش الانسان ومعاده . فالحكمة (مكتوبة بحبر أحمر) الدينية هى النظر فى قوانين كلية (lois universelles) تقتضى مصلحة عموم أبناء النوع (l'espèce humaine) من حيث تعاونهم فى التوجه إلى الكمال الحقيق . . . » .

هذا وقد رأينا قبل أن الحكمة — سواء كانت دينية أو غير دينية — حاصلة فى رأى التسترى من اعتدال القوى الناطقة ، إلى آخر ما هنالك .

والمذاهب الدينية — كالراغب الأصفهاني[٤٨] وابن عبد ربه[٤٩] — فيحشدون فى طىّ مكارم الأخلاق طائفة من الفضائل داخلة فى باب الأدب دون باب الدين ، أو يوردون — على نحو ما صَنَع الثعالبىّ — « حكماً وأمثالاً » تدور حول « سياسة النفس » .

أما المنشئون فمكارم الأخلاق على أقلامهم تأخذ إخذ الأدب . وإليك ابن المقفع مثلاً فى " الأدب الصغير " ، وقد سبق ذكره .

وأما الصوفية فيقولون بأن مكارم الأخلاق إنما هى الفضائل التى يتحلّون بها ، على ما هى عليه من « المقامات والأحوال » . ولذلك تقرأ فى كتاب ابن كنان الدمشقى ، وهو مخطوط[٥٠] « وبعد ، فلما رأيت رسالة الحافظ المحدِّث المقدسى المختصة بأحوال السادة الصوفية مشتملةً على أعداد مكارم الأخلاق ، أحببت أن أشرحها » . والمحقَّق أن الصوفى — على قول ابن عربى والسهروردى — لا يتكامل فيه الأدب (أى « جماع الخير ») إلا إذا كان جامعاً لمكارم الأخلاق[٥١] ؛ وذلك

(٤٨) " محاضرات الأدباء " مصر ١٩٠٨ ج ١ ص ١٣٣ ى .

(٤٩) " العقد الفريد " ج ١ ص ٣٤١ ى : " الأمثال فى مكارم الأخلاق " .

(٥٠) " مكارم الأخلاق " المذكور قبل ، ص ٢ م .

(٥١) ابن عربى (وابن العربى . ظ بروكلمن ك ك " تكملة " ج ١ ص ٧٩٠) " الفتوحات المكية " ج ٢ ص ٢٨٤ : « فالأديب هو الجامع لمكارم الأخلاق والعالِم بسفاسفها ... (والأدب جماع الخير) » . ز السهروردى " عوارف المعارف " ج ٣ ص ٩٦ : « فاذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيًا أديباً . وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ؛ ولا يتكامل الأدب فى العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ... » .

لأن مكارم الأخلاق زينة الرسول ، والصوفىّ « أوفر الناس حظاً فى الاقتداء برسول الله ، وأحقُّهم بإحياء سنته والتخلّق بأخلاق رسول الله[٥٢] »

علاقته بالفتوة والمروءة

ومما يلى ذلك أن تعبيراً له مثل هـــذه السلطان فى الأخلاقيات لم يكن له بد أن يزاحم لفظين آخرين لهما مكانتهما فى آداب السلوك ، وهما المروءة والفتوة . فمنزلة مكارم الأخلاق من المروءة (أو المروّة) والفتوّة موضع اختلاف نِسبىّ . برهان ذلك أنك تقرأ فى "شرح الموطأ" للزرقانى[٥٣] : « قال العلائى (وهو محدث) حاصل المروءة راجعة إلى مكارم الأخلاق ، لكنْ إذا كانت غريزة تسمى مروءة » . ثم هذا الثعالبى يعدّ المروءة اسماً واقعاً على محاسن جمّة من مكارم الأخلاق[٥٤] ، وهذا ابن جعدويه[٥٥] يثبت قولاً لسفيان بن عيينة : « قوله عز وجل : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فيها المروّة بحذافيرها »[٥٦] . (وقد رأيتَ فيما تقدم صاحب "العقد الفريد" ، مثلاً ، يرى فى هذه الآية ملتقى مكارم الأخلاق) . ويزيد ابن جعدويه (فى الصفحة عينها ، عند الكلام على اقتبـاس المروّة من معانى القرآن بعَقِب نَقْـله

(٥٢) السهروردى ك ك ج ٢ س ٣١٠ ى . هذا ومن المعلوم أن « التصوف أخلاق أى سلوك لا نصوص ولا علوم نظرية » ظ Massignon, *Essai sur les origines du lexique technique...*, Paris 1922 س ٧ .

(٥٣) مصر ١٨٩٣ ج ٢ س ٣١٧ .

(٥٤) "مرآة المروءات" مصر ١٨٩٨ س ٥ . والمروءة ، عند الباهلى ("كتاب الذخائر والأعلاق ..." س ١٣٥) « باعثة على مكارم الأخلاق » .

(٥٥) "مرآة المروءات" خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ، ظ بعد س ٥٩ (ح) ٣ .

(٥٦) س ٣٨ . ز الثعالبى "مرآة المروءات" س ٥ .

بعض الآيات) : « ... قياساً على سائر الآيات المأمور فيها بمكارم الأخلاق وممادح الأوصاف » . ثم هذا صاحب (؟) ″كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب...″[٥٧] يُدرج المروءة (مقرونة بالسؤدد) فى فصول كتابه[٥٨] .

وأمّا الذى بين الفتوّة ومكارم الأخلاق ، ففى ″كتاب الفتوّة″[٥٩] للسُلمىّ الصوفى أن استعمال مكارم الأخلاق من الفتوّة (الصوفيّة)[٦٠] . ومن ذلك ما جاء فى ″مرآة المروّات″ لابن جعدويه : « وسئل آخر عن الفتوة ، فقال : الالتزام بمكارم الأخلاق ، وتفويض الأمر إلى الخلّاق »[٦١] . وأما التسترى فينقل قولهم : « إن الفتوة عبارة عن مكارم الأخلاق »[٦٢] . وممن جرى مجراه ابن تيمية ، حيث قال فى فتوى له : « صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق »[٦٣] (وهو يريد

(٥٧) ص ١١ — ١٢ .

(٥٨) ظ بعد مبحث ″المروءة ...″ ص ٥٩ س ١٢ ى .

(٥٩) خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ (صور هذه المخطوطة المستشرق الأستاذ تيشنر F. Taeschner وسمح لى بالاطلاع عليها . وقد أفاض فى وصفها فى *Der Anteil des Sufismus...* مجلة *Der Islam* ١٩٣٧ المجلد ٢٤ ص ٥٣ ى ى .

(٦٠) ص ٨٠ .

(٦١) ص ٧٦ م .

(٦٢) ″مكارم الأخلاق والسياسة″ ص ٩ .

(٦٣) ″مجموعة الرسائل والمسائل″ مصر ١٣٤١ ص ١٥٢ . ظ لهذه الفتوى : أبو طالب على بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعى الخازن ″الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير″ ط مصطفى جواد وأنستاس مارى الكرملى بغداد ١٩٣٤ ج ٩ ص ٣٥٩ ى . ثم ظ لهذه الفتوى باللغة الألمانية : Goldziher, *Ein Fetwâ... ZDMG* LXIII (1919), 127—8 ; J. Schacht, *Zwei neue Quellen* ..., in *Festschrift G. Jacob,* Leipzig 1932, 277—83.

بالفتوة ههنا ما يقول له بعض المتأخِّرين : الفروسيَّة chevalerie[٦٤]) .

وعلى ذلك ترى أن مكارم الأخلاق تارةً تؤدّى معنى الفتوة أو المروءة كاملاً ، وثانيةً تفيد بعض الفتوة ، وأخرى تزيد على مُفاد المروءة . وأما الذى لا خلاف فيه فأن مدلولات مكارم الأخلاق والفتوة والمروءة جميعاً مستقيمة على عمود واحد .

اتصاله بالجاهلية

قد انتهى بنا المبحث ، قبل الفصل السابق ، إلى أن مكارم الأخلاق — فى جملتها — مجموعة الفضائل الإسلامية . غير أنه لا مَعدِل عن أن نُثبت أنّ طائفةً منها — مما لا يلحق بالجانب الدينىّ المحض — إنما تصعد إلى آداب الجاهلية . وإليك واقعة un fait من الواقعات :

روى صاحب " الأغانى "[٦٥] أن بنت حاتم طيِّئ كانت فى نساء سباها المسلمون ، فلما طلبها أحدهم إلى النبى قالت : « يا محمد ! هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلّىَ عنى فلا تُشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى : كان أبى يفك العانى ، ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط ؛ أنا بنت حاتم طىّ . فقال لها رسول الله : يا جارية

---

(٦٤) ط بشر فارس " دائرة المعارف الإسلامية " ليدن ط ثانية ، مادة " فتوة " .

(٦٥) ج ١٦ ص ٩٧ . والقصة ذاتها مروية بلفظ مختلف فى " كنز العمال " ج ٢ ص ١٣٤ ى رقم ٣٢٦٨ ؛ " إحياء ... " ج ٢ ص ٣١٤ ، هنا راجع ض ك (ح) ٢ : قول صاحب " المغنى عن حمل الأسفار " فى ضعف إسناد هذا الحديث .

هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلاميًّا لترحمنا عليه ؛ خلّوا عنها ، فإنّ أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » .

فإنّ هذا الحديث الأخير (« فإن أباها . . . ») ، وإن لم يرد فى المسانيد المعتبرة بحسب ما مرّ بك ، لَيشفُ عن موقف الإسلام من الجاهلية ، مهما تحدثت الناس عن تجهمه لها وانقباضه عنها . فالحق أن أخلاق الجاهلية ليست كلها مساوئ ، بل فيها محاسن ؛ ألا ترى ابن قتيبة فى "كتاب العرب"[٦٦] يقول : « فإنها (أى العرب) لم تزل فى الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتذمم ، وتتعاير بالبخل والغدر والسفه ، وتتنزه عن الدناءة والمذمة ، وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة ، وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للحميم والشقيق . . . » ؟

إنما عادى الإسلامُ الجاهلية من أجل دينها ، فلم ينكر من آدابها إلا بقدَر ، ذلك أن آدابها لم تتصل بدين القوم ، بل بنظامهم الاجتماعى . وقد بيّنتُ فى كتاب "العِرض عند عرب الجاهلية" كيف كان العرض[٦٧] قِوام تلك الآداب ، وكيف نظم الإسلام طائفةً من عناصره — مثل حفظ الجوار والوفاء بالعهد والشجاعة — فى سلك أحكامه الخلقية . وهل يغيب عنّا أن مجموعة هذه الأحكام إنما هى مصدر الفضائل الإسلامية ؟

---

(٦٦) فى "رسائل البلغاء" مصر ١٩١٣ ط محمد كرد على ص ٢٨٢ . ز ضياء الدين الموصلى "المثل السائر" ص ٢١٢ س ٦ تحت : « فان بيت السموأل (أى : وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل) قد اشتمل على مكارم الأخلاق كلها . . . » . ثم ز "العقد الفريد" ج ٢ ص ٥٠ : « فضل العرب » .

(٦٧) ظ لهذه اللفظة : بشر فارس "تكملة دائرة المعارف الإسلامية" ليدن ١٩٣٦ مادة "عرض" .

الخلاصة وخلاصة المبحث أنّ هذا التعبير — فى أوّل أمره على الأقلّ — أجنبيّ عن علم الأخلاق المنحدر من الحكمة اليونانية ، ثم عن علم السلوك النظريّ .

وعلة ذلك أنه إنما يرجع إلى الإسلام العملى ، أى انعقاد الكتاب بالسنّة مع ما ينساب فى أثنائهما من الآثار الحسنة لزمن الجاهلية .

فإن تقرر هذا فالقيَم valeurs التى تندرج تحت هذا التعبير إنما هى صادرة عن أصول موضوعية objectives لا ذاتية subjectives ، مبذولة للنفس غير فائضة منها . وربما اتفق لهذا التعبير ، على مدار الزمان ، أن يستعين الحين بعد الحين بجانبين من جوانب الأدب العربى : أما الأول فالمرويّ من الآداب النصرانية وهو جدّ قليل ، وأما الثانى فهذا الرُكام من المصادر الخلُقية : من عربيـة ومنقولة من السريانية والفارسية واليونانية ، المشحونة بالحكم والأمثال والنوادر . ثم إنّ مضمون هذه التعبير ينبسط على أيدى المتصوّفة ، حتى ينقلب مجالاً تضطرب فيه رياضات القوم النفسانية .

ومثل هذا التعبير يُعجز التعريف اللاحق بالذات définition essentielle ، غير القانع بالتعيين والتخصيص . ألا تراك إذا حاولت أن تأخذ على هذا التعبير مُنْعَطَفاته لتحُوّله إلى نقطة معلومة ، أرهقته ؟ وذلك لأن تعبير « مكارم الأخلاق » على جانب عظيم من اللطافة délicatesse والليونة souplesse جميعاً . ودليل لطافته أنّ الذين يستعملونه ويحللونه ويشرحونه هيهات أن يتفقوا على تفاصيل مضمونه . ودليل لدونته أنه يبذل نفسه من دون استكراه ولا استدعاء ، إلى الفيلسوف والمتكلم والأخلاقىّ والصوفىّ والناثر حتى الشاعر ، من غير تمييز .

إلاَّ أن هذا التعبير ليس موضع نزاع . ومعنى هذا أن الذين يُجرونه على أقلامهم لا يتنافسون فى الاستئثار به . وكيف يستأثرون به وهو حِلٌّ للجميع ، من حيث إنه فوق اختلاف الآراء، وافتراق المذاهب ؟ إنه مما أُثر ونقل ، ومن ذا الذى لا يُرسل دلوه فى المنقول ولا يُعظِم المأثور ؟

وترى النـاس يحشرون تحت هذا التعبير ، القائم مقام رمز ، قِيَماً خاصةً ، على شرط ألاَّ تزيغ تلك القيم عن سنَّة التقاليد(٦٨) . والحق أنه ليس من الواجب أن ينبثق مضمون هذا التعبير منه ؛ وذلك لأن التعبير نشأ مبهماً ، فضلاً عن أنه تركيب مرتجل . بل مضمون هذا التعبير طرأ عليه من الخارج ، فكأنه لِقاح له ؛ ثم تشبث به إرادة أن يزداد بفضله انسجاماً ورفعةً وقدرا . وأما التعبير ذاته فتراه يثْبُت ويقوى لأنه سند لمضمونه وشعار له .

وعلى ذلك النحو يعزَى هذا التعبير إلى الرسول فى غالب الأمر وأكثر الحال ، ويؤيده بعض ما فى الكتاب والسنة ، ويسيِّره حملة الأقلام على اختلاف ألوانهم ، فتنتهى به الحال إلى أن يصير تعبيراً أخاذاً يدرّ على الملة الإسلاميّة خيراً كثيرا .

---

(٦٨) مما لا محصول وراءه أن يبدو للباحث معارضة هــذه القيم بأخر ، بالقيم المسيحية مثلا . لأن القيم الأخلاقيــة أو الدينية تكاد تكون من طبيعة واحدة وبمرتبة واحدة — على ما هى عليه من التغاير — فى أطوار معينة من الحضارات . فمثل ذلك العمل (وقد أقبل عليــه لامنس Lammens ؛ ظ " الحلم " فى مجلة " المشرق " بيروت ١٩٣٤ ص ٤٨١ ى ى) لا ثمرة منه ، إلا إذا أراد الباحث أن ينظر فى اشتقاق القيم بعضها من بعض .

والآن يحِقّ لك أن تسألنى : أى فائدة يجر هذا المبحث إلى علم الواقعات الخلقية science des faits moraux ؟

والجواب أننا لم نفحص عن مجموعة واقعات faits ثابتة مبذولة للحس ، تُمكّن الأخلاق الوضعى l'éthologue أن يرى بها رأياً فى سلوك جماعةٍ معيَّنة أو فى أخلاقياتها morale ؛ أو قل : أن يرى رأياً فى مجموع عاداتها الخُلُقية ، على حسب ما تُبرزها الواقعات الاجتماعية ، أو على حسب تقدير الجماعة نفسها لها .

إنما نحن فحصنا عن تعبير أخلاقىّ ، بل عن أخلاقيّات معبر عنها بلفظين ، أحدهما إلى الآخر مضاف . ومعنى هذا أننا تأملنا حقيقة تاريخية فى الآداب الإسلامية ، تدل على رأى فى تمييز الخير من الشر . وهذا الرأى مداره النظر المجرّد ، لأن أصحابه لم يلتفتوا إلى مؤدّى الواقعة الخلقية المُحسّة . فكلهم فيلسوف أو حكيم أو صوفىّ أو كاتب ؛ وليس فيهم عالم له نظر مسدد إلى أحوال جماعته ، بحيث يأبى أن يعدّ الأخلاقيات أمراً محصوراً فى معنى يُخاض فيه ، أو حكم يُثبَّت ، أو قاعدة تُسوغ .

هذا وإننا حاولنا أن نخلُص إلى ما تحت ذلك التعبير من العنصر اللازم له ، فوجدناه : التقليد la tradition .

٣

المـــروءة *

(كلمةٌ رَمْـــزٌ) (١)

مما صحَّ عند أهل اللغة أن هنالك ألفاظاً ذهبت معانيها بذهاب الجاهلية . ولم يقف هذا الإشكال اللغوى عند ألفاظ ضاع ما تحتها ، بل انبسط على ألفاظ استترت مدلولاتها ، فعوّلت الأئمة فى تحديدها على البصيرة ، وقالت فيهـا بالتقريب والاحتمال . ومن هذه الألفاظ : الزمان

---

* نشر هذا المبحث مختصراً فى " تكملة دائرة المعارف الإسلامية " ليدن ١٩٣٧ مادة " مروءة " .

(١) فائدة — مروءة : هى الصيغة المشهورة : ابن دريد " الجمهرة فى اللغة " حيدر آباد ١٣٤٤ ى ى ج ٣ ص ٢٨٩ (وجمها مروءات) — ولك أن تشدد فتقول : مروّة (وجمها مروّات) : " الصحاح " مصر ١٢٩٢ ج ١ ص ٢٣ . الجرجانى " التعريفات " ط Leipzig ١٨٤٥ ص ٢٢٣ . الجاحظ " طبقات المغنين " فى " مجموعة رسائل " مصر ١٣٤٢ ص ١٨٧ . " ديوان الشاعر . . . الأنصارى " ط de Gœje ليدن ١٨٧٥ ص ٣٥ . Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle 1889 ج ١ ص ١ — ٤٠ . ابن جعدويه " مرآة المروّات " ظ بعد ص ٥٩ س ٦ ى ى — وأما المرؤة (بهمزة مرسومة فوق الواو) فخطأ ، كما فى Freytag, Lexicon ج ٤ ص ١٦٥ س ٢ ، ١٧ . ابن خلدون " مقدمة " ط Quatremère باريس ١٨٥٨ ج ٢ ص ٣٠٤ . " يتيمة الدهر " دمشق ١٨٨٥ ج ٤ ص ٢٠٦ . الهمذانى " الألفاظ الكتابية " ط شيخو ، بيروت ١٩١٣ ص ١٠٩ .

والجبن ، والغنى والفقر ، والكرم واللؤم[٢] .

والذى أذهب إليه أن المروءة تلحق بهذه الألفاظ المشتبهة ؛ وإليك بيان ذلك :

لو كانت المروءة واضحة المعنى ما عثرنا على تعريفات لها لا يكاد يقع بعضها على بعض ، ولا أصبنا أقوالا فيها ربما تنافرت بل تدافعت . ولولا ميلى إلى الاختصار لسقت هنا عدداً غير قليل من تلك التعريفات والأقوال ؛ ودونك مواطنها (فضلاً عن المعجمات المختلفة) :

ابن عبد ربه " العقد الفريد " مصر ١٢٩٣ ج ١ ص ٢٢١ .

ابن قتيبة " عيون الأخبار " مصر ١٩٢٥ ج ١ ص ٢٢٥ ، ٢٩٦ ى ى .

الأصفهانى " محاضرات الأدباء ... " مصر ١٣٢٦ ج ١ ص ١٤٥ .

الباهلى " الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق " مصر ١٢٩٨ ص ١٣٥ ى ى .

البُستى " روضة العقلاء ... " مصر ١٣٢٨ ص ٢٠٥ ى ى .

الثعالبى " مرآة المروءات " مصر ١٨٩٨ (الطبعة رديئة) .

الجاحظ " البيان والتبيين " مصر ١٣١١ ج ١ ص ٢١٢ .

الحصرى " زهر الآداب " ط ثانية لزكى مبارك ج ١ ص ٨٩ .

الزرقانى " شرح الموطأ " مصر ١٨٩٣ ج ٢ ص ٣١٧ ى .

الغزالى " إحياء علوم الدين " مصر ١٣٤٨ ج ٣ ص ٢١٣ .

---

(٢) ظ ابن فارس " الصاحبى " مصر ١٩١٠ ص ٣٤ ى ى .

الماوردى " أدب الدنيا والدين " مصر ١٩٢١ ص ٢٤٥ ى ى .

المبرّد " الكامل " مصر ١٣٣٩ ج ١ ص ٣٥ .

المتّقى " كنز العمال " حيدر آباد ١٣١٢ ج ١ ص ٨٤ ، ١٦٢ ى .

الميدانى " مجمع الأمثال " مصر ١٣٤٢ ج ١ ص ٥٢ .

الوشّاء " الموشّى " ط Bruennow لَيْدِن ١٨٨٦ ص ٣٠ ى ى .

ابن جعدويه علي بن الحسن ﮪ (؟) " كتاب مرآة المروّات " خ القسطنطينية آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ورقة ٣٥ — ٧٧ . (ألف هذا الكتاب للوزير نظام الملك ٤٥٦ — ٤٨٥ .)

الأردبيلى أخى أحمد المحبّ بن شيخ محمد بن ميائيل ﮪ (؟) " باب فى بيان المروّة " من " كتاب الفتوة " خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ص ١٠٦ .

مجهول " فصل فى المروّة " خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ص ٢٠٦ .

مجهول " مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدائع الأوصاف وغرائب التشبيهات " خ ليدن رقم ٤٠٩ (فى فصل " السودد والمروّة ") ص ١٢ م[٣] .

(٣) المخطوط الأول لابن جعدويه فيه ٤١ بابا . وقد حذا المؤلف حذو الثعالبي فى كتابه المذكور قبل : " مرآة المروءات " بل نحصه . غير أنه انصرف الى الناحية الدينية ، والصوفية خاصة . ووصف هذا المخطوط : تيشنر F.Taeschner, *Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals* فى مجلة *Der Islam* ١٩٣٧ المجلد ٢٤ س ٤٧ ى ى . (ط بروكلمن Brockelmann " تكملة تاريخ الآداب العربية " ليدن ١٩٣٧ ج ١ س ٧٧٣) — المخطوط الثانى للأردبيلى تجد وصفه فى Taeschner ك ك س ٥٨ . وكلام الأردبيلى فى (الفتوة) والمروّة داخل فى التصوف . ويذكر الأردبيلى فى كتابه السلمى ﮪ ٤١٢ ، صاحب " كتاب الفتوة " ، والقشيرى ﮪ ٤٦٥

ولقد صرّح أبو حاتم البستى بتضارب تلك التعريفات والأقوال إذ يقول : « اختلف الناس فى كيفية المروءة »[٤] . فكأن العرب أنفسهم لم يطمئنوا إلى مدلول للمروءة ، ولم يتواضعوا على تعريف لها . وأكبر دليل على أن معنى المروءة أشكل على المسلمين أن معاوية سأل وفداً — فى غير مراوغة — قال لهم : « ما تعدون المروءة ؟ »[٥] .

ونحن اليومَ لا نستطيع أن نحدّد معنى المروءة . فأيّنا يقوى على أن يعرّفها التعريف الحقيق définition réelle الناهض على التمييز ، فى قول يونس بن حبيب : « ليس لِعَيِيٍّ مروءة » ، مضافاً إلى قول عمر بن الخطاب : « تعلموا العربية فإنها تزيد فى المروءة » ، وقول معاوية : « المروءة احتمال الجريرة ، وإصلاح أمر العشيرة » ، وقول الأحنف : « لا مروءة لـكذوب » ، وقول القائل : « المروءة النظافة وطيب الرائحة » ، وقول بعضهم : « المروءة كثرة المال والولد » ، أو : « المروءة حسن الحيلة فى المطالبة ، ورقة الظرف فى المـكاتبة » ، وقول الثورى : « المروءة بذل الندى ، وكفّ الأذى ، وترك الهوى ، والزهد فى الدنيا ، وطاعة المولى »[٦] . وأما قول بشّار :

صاحب " الرسالة " ؛ فهو إذن لاحق لهما . وقد نشرتُ هذا المخطوط الثانى فى مجلة " المقتطف " أبريل ١٩٣٩ ص ٤٦٩—٤٧١ : " المروءة ، مصدر مطوى " — المخطوط الثالث تجد وصفه فى Taeschner, *Futuwwa-Studien* فى مجلة *Islamica* المجلد ٥ ١٩٣٢ ص ٣١٨ — المخطوط الرابع تجده مذكوراً فى *Dozy, Cat. Cod. or. 409 (I, 269 sq.)* . وقد نشرتُ المخطوطين الثالث والرابع فى مجلة " الرسالة " مصر ١٩٣٩ السنة ٧ العدد ٢٩٧ ص ٥٣٢ — ٥٣٤ : " المروءة ، مصادر مطوية " .

(٤) " روضة العقلاء " ص ٢٠٧ .

(٥) " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٢١ .

(٦) تجد هذه النصوص فى الـكتب المذكورة قبل ، ص ٥٨ ى .

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يُسليك أو يتوجّع

فلعمرى لولا أن بشار بن برد فصّل المعنى فى المصراع الثانى ، ما أدركنا ما يريد بذى المروءة .

ولعل معترضاً يقول : إن المروءة تفيد السيادة ، والمرء السيّدَ . ودليله على ذلك مشتقات مادة م ر ء الآرامية (ولا سيما اسم الفاعل منها) ، من حيث إنها تفيد — على وجه التخصيص — « السيادة وعز السيّد وكرمه » (٧) . ولربما عزز المعترض دليله — بعد هذا — بوقوع "باب المروءة" فى كتاب "السؤدد" من "عيون الأخبار" لابن قتيبة .

والرد على هذا الاعتراض أنّ ابن قتيبة لم يثبت فى "باب المروءة" إلا قولاً واحداً تنزع فيه المروءة إلى السيادة(٨) . وهذا القول لا يصعد إلى الجاهلية . هذا فضلاً عن أن لفظة مرء(٩) وهى اللفظة الناظرة إلى « مَرْيو » الآرامية — من حيث الاشتقاق — إنما مفادها الإنسان فى

(٧) ظ معجمات Payne Smith, Margoliouth, Brun, Brockelmann ، ثم القرداحى "اللباب" بيروت ١٨٩١ ج ٢ ص ٧٨ ؛ المطران يوسف داود "اللمعة الشهية . . ." الموصل ١٨٩٦ ج ١ ص ٣٦١ . ز Bauer فى المجلة الألمانية *ZDMG* ١٩١٣ ص ٣٤٢ ى ى .

(٨) قول مسلمة بن عبد الملك : « مروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة » ص ٢٩٦ س ١٠ . وزد على ذلك أن ليس فى "فصل فى السودد والمروّة" من مخطوط ليدن "مكارم الأخلاق . . ." قول يصعد إلى الجاهلية .

(٩) ورد « مرء » و « امرؤ » ، ظ لأنواع كتابة هذه اللفظة الأخيرة : Fischer, *Imra'alqais...* فى مجلة *Islamica* ١٩٢٥ ص ١ — ٤١ ، ٣٦٥ — ٣٩٠ . وتصغير مرء : « مُرَىّ » ظ ابن دريد "اشتقاق" Goettingen ١٨٥٤ ص ٢٢٩ س ١٦ .

العربية[١٠] ؛ وشاهد هذا فى القرآن[١١] ثم فى الشعر الجاهلى[١٢] . بقى أنّ لفظة امرأة ، مؤنث امرئ[١٣] تفيد المرأة على وجه عام[١٤] أو زوج الرجل[١٥] .

ومن هنا يتبيّن أنّ المروءة لم تفد — أول الأمر — السيادة ، حتى تتضمن ، على تعاقب الأيام ، السجايا الرفيعة (سجايا السيد مثلاً) ، من قبيل ابتذال اللفظ أو التوسُّع فى القول . بل أكبر الظن أنها ضمت ، أوّل ما ضمت ، محاسن خَلق الإنسان ، ثم — من طريق التجريد والمجاز — محاسن خُلقه[١٦] .

(١٠) " تاج العروس " ج ١ ص ١١٧ تحت . ز اللفظ الألمانى *Mensch*

(١١) مثلاً : سو ٢ ، آ ٩٦ ؛ ١٩ ، ٢٩ ؛ ٢٤ ، ١١ ؛ ٥٢ ، ٢١ ؛ ٧٨ ، ٤١ ؛ ٨٠ ، ٣٤ .

(١٢) مثلاً : " جمهرة أشعار العرب " مصر ١٣٠٨ ص ٥١ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٣٦ . " حماسة البحترى " مصر ١٩٢٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٧٨ ، ٢٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٥٨ . " المفضليات " مصر ١٩٢٦ ص ١٠٥ ، ١٠٧ .

(١٣) " تاج العروس " ج ١ ص ١١٧ .

(١٤) ز " القرآن " سو ٤ آ ٥ ، ٢٨ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٤٩ .

(١٥) " القرآن " سو ١٩ ، آ ٥٩ ؛ ٦٦ ، ١٠ ، ١١ .

(١٦) ز اللفظة المجاورة : الرجل (ظ " تاج العروس " ج ١ ص ١١ ، ١٢) . واذكر قول عامة مصر : « فلان دا راجل » ، ولـكن ما معنى « راجل » ههنا ؟ أفلا يختلف باختلاف المتكلم والمخاطب والمتعارَف ؟

فى " فصل فى المروءة " (ظ " الرسالة " السنة ٧ العدد ٢٩٧ ص ٥٣٣ ى) تأويل لاشتقاق المروءة طريف . ومجمله أن للمروءة اشتقاقين : الأول من « مرؤ الطعام وأمرأ، إذا تخصص بالمرىء لموافقته الطبع ... فعلى هذا يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية . والثانى أن يكون من المرء فيجعل اسماً للمحاسن التى يختص بها الرجل دون المرأة ، فيكون كالرجولية وذلك أخص من الإنسانية إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء ، والمروءة أخص بكثير » .

وأقرب الظنّ أنك تصيب فى الأقوال والتعريفات التى تقدم ذكرها جانبين متضادين ، كلاهما معقود بالآخر : الأول حِسّى ، والثانى معنوى[١٧] ؛ وهذا غلّاب على ذاك . وكأنّ مروءة الجانب المعنوى تتصل بمكارم الأخلاق ، ومروءة الجانب الحسّى تتعلق بشؤون الحياة المادية .

والذى أذهب إليـه أنّ الجانب الحسّى ينحدر من زمن الجاهلية ؛ وأما الجانب المعنوى فمصدره الإسلام . ومما يميل بى إلى هذا الرأى خبر يسوقه صاحب "الأغانى"[١٨] نلمس فيه تقابل المروءتين ، مروءة الجاهلية ومروءة الإسلام : روى أبو الفرج ، قال : دخل عيينة بن مرداس الشاعر الهجّاء على عبد الله بن عبـاس عامل علىّ بن أبى طالب على البصرة ، فقال له ابن عباس : « ما جاء بك إلىّ ؟ » ، قال : « جئتك لتعيننى على مروءتى ... » ؛ قال : « وما مروءة من يعصى الرحمن ، ويقول البُهتان ؟ والله لئن أعطيتك لأعيننّك على الكفر والعصيان . . . »[١٩] .

---

(١٧) أمثلة : « المروءة العفاف وإصلاح المعيشة » . « إنا معشرَ قريش نعُد العفاف وإصلاح المال مروءة » . « المروءة تقوى الله وتفقد الضيعة » ("العقد الفريد" ج ١ ص ٢٢١) . « المروءة إصلاح المال والرزانة فى المجلس والغداء والعشاء بالفناء » ("عيون الأخبار" ج ١ ص ٢٩٥) . « المروءة أن يعتزل الرجل الريبة ... وأن يصلح ماله ... وأن يقوم لأهله بما يحتاجون إليه ... وأن ينظر فيما يوافقه من الطعام والشراب ... » ("الوشى" ص ٣٢) . أو قل هنالك مروءة ظاهرة ومروءة باطنة : قال عمر بن الخطاب : « المروءة الظاهرة الرياش والمروءة الباطنة العفاف » ("العقد الفريد" ج ١ ص ٢٢١ . ز "البيان والتبيين" ج ١ ص ٢١٢) .

(١٨) مصر ١٢٨٥ ج ١٩ ص ١٤٣ ى .

(١٩) لنذكر هنا أن الاسلام قام فى وجوه الشعراء بسبب هجائهم . ظ بشر فارس "تكملة دائرة المعارف الإسلامية" ليدن ١٩٣٦ مادة "هجاء" .

ومجمل خبر " الأغانى " أن عيينة بن مرداس كان مُعوزاً ، فقصد إلى عبد الله بن عباس يسترفده ، ويرغب إليه أن يعينه على مروءته [٢٠] ، فردّه ابن عباس لاتّهامه إياه فى مروءته . والذى يتحصل من هذا الخبر أن المروءة عند ابن مرداس ترجع إلى المعاش ؛ وأما ابن عباس فقد نظر إليها بعينى المسلم ، فنزهها عن المادة ، وأنزلها منزلة الخُلُق الحسن .

غير أنه من المتعذر أن نجزم بأن المروءة كانت مقصورة على الجانب المادى من الحياة فى الجاهلية ، لأن الألفاظ — على وجه العموم — تنتقل بالتدرج من الحس إلى المعنى . والدليل على هذا أن لفظة امرأة كانت تفيد فى ذلك العهد المرأة الكاملة [٢١] . وأذكر ، زيادةً على ما تقدم ، هذا البيتَ الجاهلى المشهور :

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً   فمطلبها كهلاً عليه شديد [٢٢]

---

(٢٠) أى : يعطيه حتى لا يشتهى طعام غيره . وإليك مرجع هذا التفسير : « قال عمر ابن هبيرة : عليكم بمباكرة الغداء ، فإن فى مباكرة الغداء ثلاث خلال : يطيب النكهة ويطفئ المرّة ويعين على المروءة » . وقيل : « وما إعانته على المروءة » ؟ قال : « لا تتوق النفس إلى طعام غيره » (" الموشى " ص ٣٢ س ٧ ى . ز " مرآة المروءات " ص ١٥ س ١٢ ى) . ثم ز ، لتقابل المروءتين ، قول الزبرقان : « وما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس » ، يوم ذهب إلى عمر ابن الخطاب يشكو إليه هجاء الحطيئة (" الأغانى " ج ٢ ص ٥٥) .

(٢١) الزمخشرى " كتاب الفائق " حيدرآباد ١٣٢٤ ج ٢ ص ٢٤٣ . ابن الأثير " النهاية فى غريب الحديث والأثر " مصر ١٣١١ ج ٤ ص ٨٧ .

(٢٢) " حماسة أبى تمام " ط Freytag ص ٥١١ . البغدادى " خزانة الأدب " مصر ١٣٤٩ ج ٣ ص ١٩٧ ى . " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٤٧ . الثعالبي فى " مرآة المروءات " ص ٢٦ ينتحل هـذا البيت (؟) مع إيراد قافية « ثقيل » بدلا من « شديد » . ز بيت آخر لحسان بن ثابت " شرح ديوان ... " مصر ١٩٢٩ ص ٣٧١ :

تسوّد ذا المال القليل إذا بدت   مروءته فينا وإن كان معدما .

ولـكن المروءة فى هذا البيت مغلقة غامضة ، وإن كان مُفادها موقوفاً على الجانب المعنوى[٢٣] . وعلى أيّة حال فلو كان للمروءة مدلول واضح فى الجاهلية لتسايرت أقوال المسلمين فيها والتفّت تعريفاتهم لها على معنىً أصلىّ ، فما جاءت على ذلك الجانب من التباعد والتناقض . وكأن الحسىّ والمعنوىّ جميعاً أخذا يتجاذبان المروءة أيام الجاهلية ، فلم تقوَ على الاستقرار والثبات .

والظاهر أن المروءة لم تبلغ مبلغها من المعنوية إلا بالإسلام . ولعلّ المسلمين أنزلوا المروءة منزلة مكارم الأخـلاق[٢٤] استناداً إلى هذه الأحاديث[٢٥] :

ا — « إن كان لك خلق فلك مروءة »[٢٦] .

ب — « لا دين إلا بمروءة »[٢٧] .

---

(٢٣) وسيكون شأنها كذلك فيما بعد . مثلا : أبو تمام " ديوان " مصر ١٢٩٢ ص ١٤٦ . البحترى " ديوان " بيروت ١٩١١ ص ٧٥٠ . المتنبى " ديوان " برلين ١٨٦١ ص ٥٦ .

(٢٤) ظ " مرآة المروءات " ص ٢ ؛ ولا سيما " شرح الموطأ " ظ قبل ص ٥٩ فوق . وارجع إلى قبل ص ٥٠ ى ى ، للصلة التى بين المروءة و مكارم الأخلاق .

(٢٥) كتب إلىّ المستشرق ا . ى . فِنسِنك Wensinck (ز قبل ص ٤٠ ى) يقول : إن هذه الأحاديث مما لم يدوّن فى الصحاح . وأخبرنى أيضاً الأستاذ محمد عبد الباقى — صاحب " تيسير المنفعة ، بكتابى مفتاح كنوز السنة " مصر ١٩٣٥ ، وناقل كتاب " مفتاح كنوز السنة " مصر ١٩٣٣ — قال : إن لفظة المروءة لم ترد فى الأحاديث المدونة فى أصول السنة .

(٢٦) " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٩٥ . " الموشى " ص ٣١ .

(٢٧) " العقـد الفريد " ج ١ ص ٢٢١ . (وهو حديث منسوب أيضاً إلى الحسن فى " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٩٥) .

حـ — « مروءة (المؤمن) عقله »[٢٨] .

ء — « ليأتين على الناس زمان تقصر فيه المروءة ، وتدق فيه الأخلاق ، ويستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، فإذا كان كذلك فانتظروا العذاب صباحاً ومساء »[٢٩] .

---

(٢٨) ابن أبي الدنيا " مكارم الأخلاق " خ برلين رقم ٥٣٨٨ ص ١ م . ز ابن جعدويه "مرآة المروّات" ص ٣٨ م تحت . ثم « ومروءة (الرجل) عقله » : "روضة العقلاء" ص ٢٠٥ — وهذا الحديث منسوب أيضاً إلى عمر بن الخطاب فى رواية أخرى : « مروءة المؤمن خلقه » فى " شرح الموطأ " ص ٣١٧ . ز كنز العمال ص ١٦٣ . وفى الخرائطى " مكارم الأخلاق ومعاليها ... " مصر ١٣٥٠ ص ٤ : « ... عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه ... وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : حسب المرء دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله » .

(٢٩) ابن جعدويه " مرآة المروّات " ص ٣٨ م تحت .

وهنالك أحاديث أخرى :

أ — الأردبيلى " باب فى بيان المروّة " (ظ " المقتطف " أبريل ١٩٣٩ ص٤٧٠) : « وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ستة من المروّة ، فثلاثة منها فى الحضر وثلاثة فى السفر . فأما اللواتى فى الحضر فتلاوة كتاب الله تعالى ، وعمارة مسجد الله ، واتخاذ الإخوان فى الله . وأما اللواتى فى السفر فبذل الزاد ، وحسن الخلق ، وكثرة المزاح فى غير معصية الله » . ز فى " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٢١ قول ربيعة الرأى : « المروءة ست خصال ، ثلاثة فى الحضر وثلاثة فى السفر . فأما التى فى السفر فبذل الزاد ، وحسن الخلق ، ومداعبة الرفيق . وأما التى فى الحضر فتلاوة القرآن ، ولزوم المساجد ، وعفاف الفرج » .

ب — فى " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٩٥ : « قال رسول الله : ورُّوا لذوى المروءات عن عثراتهم ، فوالذى نفسى بيده إن أحدهم ليعثر وإن يده لفى يد الله » . ز " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٢١ .

حـ — فى " مكارم الأخلاق ... " خ ليدن (ظ " الرسالة " السنة ٧ العدد ٢٩٧ ص ٥٣٣) : « قال النبيّ : تجافوا عن عقوبة ذوى المروّة ما لم يقع حداً ... » .

ء — فى " منتخب كنز العمال " بهامش " مسند " ابن حنبل مصر ١٣١٣ ج ١ ص ٢٨٤ ، جملة أقوال منسوبة إلى النبي ، تحت كلمة المروءة .

عظم شأن المروءة منذ مطلع الإسلام لتسلط المعنوية عليها . وإذا نحن تعقبناها ، على كر الزمان ، رأيناها تنتقل — على الجملة — من موضع إلى موضع ، والمعنويّ لازمها . ودونك تفصيل ذلك[٣٠] :

تفيد المروءة فى عهد الخلفاء الراشدين : العفاف[٣١] ، والخلق الحسن[٣٢] ، والائتمار بأوامر الله[٣٣] .

وأما فى عهد بنى أمية ، فكانت تجمع بين سياسة الملك[٣٤] ، ودهاء السلطان[٣٥] ، والعمل ، والعفة[٣٦] ، والوقار[٣٧] ، والرقة ، ولين الجانب[٣٨] .

وأما فى العصر العباسى الأول ، فاحتملت الفضل[٣٩] ، وقابلت الدناءة[٤٠] ؛ ثم أورث ضياعها « رقة الشأن ، وسخف المنزلة »[٤١] . ومن هذه الوجهة وافقت الأدب (بمعنى حسن السلوك) عند الأخلاقيين[٤٢] ؛ وقد

---

(٣٠) رأيتُ أن أغفل بعض مصادر النصوص التى أستخرج منها دلالات المروءة ، إذا كانت هذه المصادر مما أثبتّه فى مستهَلّ البحث .

(٣١) قال عمر بن الخطاب : « والمروءة الباطنة العفاف » .

(٣٢) قال عمر بن الخطاب : «ومروءة المرء خُلقه». (٣٣) راجع خبر "الأغانى" قبل .

(٣٤) قال معاوية : « المروءة احتمال الجريرة وإصلاح أمر العشيرة » .

(٣٥) قال عبد الملك بن مروان : « المروءة موالاة الأكفاء ، ومداجاة الأعداء » .
وقال معاوية : « (المروّة) إطعام الطعام ، وضرب الهام » .

(٣٦) قال الأحنف : « المروءة العفة والحرفة » .

(٣٧) قال الأحنف : « كثرة المزاح تذهب المروءة » .

(٣٨) راجع بيت بشار قبل . ظ القرنى "بشار بن برد ..." مصر ١٩٢٥ ص ٧٠ .

(٣٩) ابن المقفع "كليلة ودمنة" بيروت ١٨٩٩ ص ٢٦٦ .

(٤٠) عن الأصمعى : "عيون الأخبار" ج ١ ص ٢٩٦ .

(٤١) ابن المقفع "الأدب الكبير" مصر ١٣٣١ ص ٧٠ .

(٤٢) ألف صالح بن جناح (ظ مجلة "المقتبس" سنة ١٩٣٠ ص ٦٤٩) رسالة عنوانها "الأدب والمروءة" نشرها محمد كرد على فى "رسائل البلغاء" مصر ١٩١٣ ص ٣٠٢ — ٣١٤ . ومما قاله صالح بن جناح هذا : « أصل المروءة الحزم وثمرها الظفر » (عن "تاريخ ابن عساكر" . ظ "مجلة المجمع العلمى العربى" المجلد ٤ ج ١ ص ٣٢) .

اتفق للفظة الأدب أن تقرن بلفظة المروءة غير مرة[٤٣] ؛ وعلى هذا " كتاب الأدب والمروءة " لصالح بن جناح .

ثم مضى الزمن فصارت المروءة عند أهل اللغة : « الإنسانية »[٤٤] و « السرو »[٤٥] و « كمال الرجولية »[٤٦] . هذا من شقّ ؛ وأما الشق الآخر ، فقد سدت المروءة عند الأخلاقيين مسدّ الفضائل الإسلامية[٤٧] ، أو قامت « لفظاً لمعانٍ كثيرة ، واسماً واقعاً على محاسن جمة من مكارم الأخلاق وممادح الأوصاف ... تجمع مناقب الملوك والوزراء ... »[٤٨] ، أو أخذت ، بتقدم علم الكلام ، تحتل مكاناً رفيعاً فى الأخلاقيات النظرية ، جامعةً بين « حقوق وشروط معينة قائمة فى الوهم حساً ، وظاهرة بالفعل ، وخافية بالتغافل ، وواجبة حدساً »[٤٩] . وما زالت المروءة تسير فى طريق الأخلاقيات ، وترق فى ميدان

---

(٤٣) عند عبد الحميد الكاتب قديماً. ظ ابن خلدون "مقدمة" بيروت ١٩٠٠ ص ٢٤٨ س ١٠ ؛ "مرآة المروءات" ص ١٢ س ١٢ ى ، ص ٢٥ س ٤ ى ى تحت .

(٤٤) الجوهرى △ سنة ٣٩٨ "الصحاح" ج ١ ص ٢٣ .

(٤٥) عن أبي زيد الأنصارى : ابن سيده △ ٤٥٨ "المخصص" ج ٣ ص ١٧ .

(٤٦) عن الصغانى (أو الصاغانى) △ ٦٥٠ : "تاج العروس" ج ١ ص ١١٧ س ٤ .

(٤٧) قال البستى △ ٣٥٤ "روضة العقلاء" ص ٢٠٨ : « والمروءة عندى خصلتان . اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال ، واستعمال ما يحب الله والمسلمون من الخصال » . ز السيوطى "شرح موطإ مالك" مصر ١٣٤٨ ج ٢ ص ٢١١ (قول ابن عبد البر) .

(٤٨) الثعالبي △ ٤٢٩ "مرآة المروءات" ص ٢ . ز ابن جعدويه ص ٣٦ م ؛ الباهلى △ ٥٤٤ "الذخائر والأعلاق" ص ١٣٥ : « المروءة جامعة لأشتات المبرات » .

(٤٩) ومن الشروط : العفة والنزاهة والصيانة الخ . (الماوردى △ ٤٥٠ "أدب الدنيا والدين" ص ٢٧٧) . ز الباهلى ص ١٣٥ ى .

التجريد، حتى آل بها الأمر أن نزلت منزلة الفضيلة عند أهل اللغة[٥٠] وأصحاب الحكمة الخلقية[٥١] على السواء .

ويتصل بهذا أن رجال القضاء الشرعى يعدون المروءة « الارتفاع عن كل ما يُرى أن من تخلق به لا يحافظ على دينه ، وإن لم يكن حراماً »[٥٢].

ومما يلى ذلك كله أن المروءة فى الأندلس حُرِّفت ، على الزمن ، إلى مروّة و مَراوَة ، وقامت لها صفة : مَرَوِى[٥٣] ، تدلّ على أدب المعاملة ولطف المعاشرة[٥٤] .

وأما المروءة فى لغة العامة لهذا العهد ، فباقية على وجهها فى النطق فى قول مصر : « فلان ما عندوش مَرُوءَة » ، وهى تقابل فى هذا الموطن الدناءة وتفيد الجود والمساعدة ؛ ومن هنا تعبير : « مروءتلى »[٥٥] . ثم إنها تنحرف عن وضعها الأول فى قول أهل الريف لمصر : « فلان ما عندوش مِرِوّة » ؛ ومثله قول أهل سورية : « فلان ما لُه مْرُوّه » . وأما

---

(٥٠) « والمروءة آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات » (الفيومى ه ٧٧٠ "المصباح المنير" مصر ١٩١٢ ص ٨٨٧) .

(٥١) « المروءة هى قوة للنفس مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعا وعقلا وعرفا » (الجرجانى ه ٨١٦ "التعريفات" مصر ١٢٨٣ ص ١٤١) .

(٥٢) Fagnan, *Additions aux diction. arabes*, Alger 1923 ص ١٦٣ .

(٥٣) وكأن هذا البناء محرف عن البناء الفصيح : مرىء ، كأمير . ظ الفيروز زبادى "القاموس" ج ١ ص ٣٣ .

(٥٤) Schiaparelli, *Vocabulista*... Firenze 1871 ص ١٨٤ ، ٣٢٨ ، ٤٢٤ ى . Dozy, *Suppl. aux diction. arabes*, Leyde 1881 ج ٢ ص ٥٧٨ .

(٥٥) وهذا اللفظ تركى الصيغة .

مُفاد المروّة فى ذينك القولين ، فالقوّة والنشاط . ولهذا المفاد أصل فى فصيح الـكلام [٥٦] .

بق أن المروءة انتهت إلى اصطلاحات المتصوفة . ألا ترى إلى النصراباذى كيف عدّها « شعبة من الفتوة » [٥٧] ؟ ثم ها هى ذى تنجذب تحت قلم ابن جعدويه إلى الفتوة الصوفية [٥٨] . ومما لا شك فيـه أن الفتوة والمروءة لفظان متجاوران فى صفحة الأخلاقيات . برهان هذا أنهما كثيراً ما يردان مقرونين [٥٩] . إلاّ أن التحقيق أن المروءة تتميز من الفتوة ،

---

(٥٦) قال المعتضد بالله : « أنا والله لا أرى الدنيا تفى بهمتى ومروءتى » (الثعالبى " أحاسن كلم النبى والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية . . . " *Syntagma Dictorum* ط Valeton ليدن ١٨٨٤ ص ٢٨ س ١٩) .

(٥٧) " الرسالة القشيرية " مصر ١٢٧٧ ص ١٢١ س ٢١ · (النصراباذى △ ٣٧٢)

(٥٨) " مرآة المروءات " ص ٢٩ ى . وارجع هنا إلى Taeschner, *Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals* ، ظ قبل س ٥٩ (ح) ٣ · وكذلك تحت قلم الأرديلى على ما مرّ بك (ح) ٣ .

(٥٩) الثعالبى " مرآة المروءات " ص ١٥ س ١ ى تحت ص ٢٣ س ٤ ص ٢٤ س ٦ ص ٢٥ س ٢ ص ٢٦ س ١٢ . " الموشى " ص ٣٠ س ١٣ . Fleisher, *Ali's Hundert Sprueche*; Leipzig 1837 ص ٧ س ١ ، ٨ ص ١٥ س ١١ ص ٢٥ س ١٣ ص ٢٩ س ١ . آلفـرت " فهرس . . . " ج ٥ ص ٣٠ ، ٣١ رقم ١٧ ، ٣٢ · الأصفهانى " محاضرات الأدباء " ج ١ ص ١٤٥ · الجاحظ " رسالة فى طبقات المغنين " فى " مجموعة رسائل " مصر ١٣٢٤ ص ١٨٧ تحت · الباهلى ص ١٣٧ تحت . الخرتبرتى " تحفة الوصايا " خ القسطنطينية ، آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ، ارجع إلى F. Taeschner, *Der Anteil...* ص ٦٥ ، وخ ذاتها ص ١٠٦ ، ١٠٨ · وفى " مرآة المروّات " لابن جعدويه بابان : أولها « ما قيل فى المروّة ومعانى الفتوة » ص ٣٨ م — ٣٩ م ، والثانى فى « الفتوة وما سألوا عنها » ص ٧٥ م — ٧٧ · ز لاقتران اللفظين أيضاً : ذ ص ٣٥ م ، ٣٦ م .

من حيث إنها ذهبت مذهباً بعيداً مستقلةً عن التصوف ، بما هى مفردة من مفردات اللغة ومُدرَك أخلاق en tant que notion éthique[٦٠] ، على ما قدّمته . ثم هـذا أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ٥ ٤٠٤ يقول فى « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر »[٦١] : « ترويحة المروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وحاله ، والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره » ، ثم فصّل الكلام فوصف الفتوة بالإيثار[٦٢] وبذل النفس ، إلى غير ذلك من الصفات التى تقرّبها من مُفاد لفظة chevalerie عند الفرنجة . والنتيجة أن بين الفتوة والمروءة وشائج من قِبل الأخلاقيات ، وإن اختص كل منهما بمدلولات مستقلة فى النهاية[٦٣] .

وخلاصة المبحث أن لفظة المروءة — لغموضها أصلاً وما ظفرت به من المرانة من طريق هذا الغموض ، ثم لخاصيتها المجردة التى استقرت وثبتت بفضل الإسـلام — أفلتت من المادة لتصير كلمة من الـكَلِم الروامز ، حتى إنها نافست مفردات لا شأن للحسّ فى معـانيها الغالبة ؛ مثال :

---

(٦٠) ز F. Taeschner, *Die islamischen Futuwwabuende, ZDMG* 1933 ص ١١ ، ٢٧ . ن *Der Anteil...* ص ٤٧ ى ى .

(٦١) خ برلين والقسطنطينية . تجد الفصل الخاص بالمروّة والفتوة مطبوعاً ومنقولا إلى اللغة الألمانية : Taeschner, *Der Anteil...* ص ٦٩ ى ى . وراجع "الجماهر ..." ط Krenkow ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ ص ١٠ .

(٦٢) ز هنا قول ابن حزم ٥ ٤٥٦ "مداواة النفوس ..." مصر ١٣٢٣ ص ٢٦ : « وأن تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف المبادرين إلى المسامحة والإيثار » .

(٦٣) ظ بشر فارس "دائرة المعارف الإسلامية" ط ثانية ، ليدن ، مادة "فتوة" .

الشرف ، والسؤدد ، والعِرض ، والكرم[٦٤] ، والفتوة . ثم إنك ترى هذه اللفظة تستغرق طائفةً من المدلولات والقيم ودقائق التعبير ، من دون أن تنال من وراء ذلك قسطاً من الدقة والضبط .

فإذا تقرر ما تقدم فمن المتعذَّر أن نذهب مذهب المستشرق جُولْدْ تْسِيهِرْ Goldziher[٦٥] . ذلك أنه يُنزل المروءة — من باب التخيّل — منزلة الفضيلة virtus عند عرب الجاهلية[٦٦] . ومجمل مذهب الرجل أن المروءة كانت تقابل الدين مقابلةً فى ذلك العهد ؛ ثم قامت مقام مبدإ معنوى ، تدور عليه الأخلاق الكريمة ، من حيث إنها كانت تجمع بين إلزامات obligations أربعة : السخاء ، والوفاء ، وحفظ الجوار ، والأخذ بالثأر .

وقد تلا تِلوَ جولدتسيهر جماعة المستشرقين[٦٧] ، ثم لفّ لفّهم بعض الشرقيين[٦٨] .

---

(٦٤) الثعالبي «مرآة المروءات» ص ٨ س ١٥ ص ٢٠ س ٩ ص ٢٢ س ١١ ، ١٢ ص ٢٣ س ١٦ ص ٣١ س ١ ، ٢ . «العقد الفريد» ج ٢ ص ٨٩ س ٣ . ابن المقفع «الأدب الكبير» ط أحمد زكى ، الإسكندرية ١٩١٢ ص ٤٢ . ابن قتيبة «أدب الكاتب» مصر ١٣٤٦ ص ١٣ . «كتاب التاج ...» المنسوب إلى الجاحظ مصر ١٩١٤ ص ٧٧ .

(٦٥) *Muh. St.* ج ١ ص ١ - ٤٠ *Muruwwa und Din* ص ١٣ خاصة .

(٦٦) ظ قبله : de Goeje, *Diwan poetae al-Ansari*; Leyde 1875 ص LXVIII ، استناداً إلى نص غامض .

(٦٧) Lammens, *Le Berceau de l'Islam*, Rome 1914, p. 199, 238. Massé, *l'Islam*, Paris 1930, p. 18. . «دائرة المعارف الإسلامية» ط أولى ج ١ ص ٣٨١ ، الطبعة الفرنسية .

(٦٨) ظ أحمد أمين «فجر الإسلام» مصر ١٩٢٨ ص ١١ . «المجمل فى تاريخ الأدب العربى» مصر ١٩٢٩ ص ٩ .

وفى هذا المذهب موضعان للنظر . أما الأول فرجعه إلى فن النَقل فى اللغة ، وأما الثانى فإلى المنهج :

ا — قد تبيّن لك مما قدّمت أن المروءة لم تنزل منزلة الفضيلة على جهة المماثلة إلاّ فى العصور المتأخرة ، وأنها لم تكن قط أيام الجاهلية لتتضمّن مدلولاً معنويًّا يُعدّها لأن تصير كلمةً رَمزًا mot symbole تقع موقع مبدإ اجتماعى ؛ وبالكلمة الرَمْزِ أعنى كلمةً متى وقعت فى مسمعك نشرت فى خاطرك مجموعةً من القيم المجرّدة .

ب — من العسف أن يُدير الباحث ، من باب التخيّل ، نطاقاً يلمّ فيه عناصر متباينة لا يجد بدًّا من تعديلها ، ولو شيئاً ، حتى لا ينفصم النطاق . ذلك أن الباحث إذا ارتجل رأياً ليعتمد عليه فى سبيل الفحص عن جميع ما يقع تحت الحِسّ ، فهيهات أن يظفر بما ينطوى فى نواحى المبذول le donné وما ينعرج فيه ؛ ولا سيما إذا أراد الفحص عن أخلاقيات غريبة عن فهمه entendement خارجةٍ عن زمانه . فما ينبغى له إذن أن يتدرّج من الواقعات إلى النظر . وذلك بأن يتدبر أحوال الجاهلية ، ويأتى عرب ذلك العهد من أبوابها ، فيتأمل آثارها ، ويستقرى أشعارها ؛ حتى إذا تمّ له ذلك ، علم أن عاداتها الخلُقية تذهب إلى ما وراء الوفاء والسخاء ورعاية الجار والأخذ بالثأر ، وأنها تندرج جميعاً — آخر الأمر — تحت معنى غير قائم فى الوهم ، بل متمكّن فى الواقع ، وأن لفظة العِرض إنّما هى التى تؤدّى ذلك المعنى . وعلى هذا النحو يكون الباحث قد سلك طريق العلم الوَضْعىّ العادل عن الآراء المرتجلة والمعانى المتوهَّمة إلى اعتبار الواقعات ، بعد ركزه لها فى الأرض التى أنبتتها ثم غذّتها .

وإذا عدنا إلى مَثَل النطاق الذى ضُرب فيما مضى من الكلام ، عددنا صاحب البحث الموضوعىّ مَن يجمع العناصر فيضمّها بعضها إلى بعض على وجوهها ، من غير تبديل ولا تعديل ، ثم يشدّ عليها نطاقاً ، ينحنى تارةً بانحنائها ، ويستقيم ثانيةً باستقامتها ، ويستدير أخرى حين تستدير .

وغاية القول أن المروءة لم تسدّ مسدّ الفضيلة أيام الجاهلية ، بل للعِرض أن يَحل محلّها فى هذا الباب .

وأما قصة اندراج أخلاق عرب الجاهلية تحت معنى العرض — بما هو مُدرَك عام — فاطلبها ، إذا شئت ، فى موضع آخر[٦٩] .

(٦٩) "العرض عند عرب الجاهلية" *L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam* باريس ١٩٣٢ ص ٣٢ ى ى .

٤

التفرّد والتماسك عند العرب

(مراجعة أقوال المستشرقين)

تقول فئة من المستشرقين بأن العربي يفرط فى التفرد[١] . وفى مقدمة تلك الفئة : لامنس[٢] ثم الأستاذ ج . — دومامبين[٣] ، وعنه أخذت جانباً من العلم فى السربون — طال عمرُه ! وكأنى بالقوم قد ذهبوا إلى ذلك من بعد ما استلوا العربيّ من بيئته ، وسلخوه من محيطه ، وتوهموه امرءا يعيش منطوياً على نفسه معتمداً عليها . ثم إنهم غالوا فى مذهبهم، إذ حاولوا أن يتبينّوا طبيعة العرب معولين على بعض الآراء المرتجلة . شاهد ذلك أن الأستاذ دومامبين يستخلص تفرد العربى من الصفات اللازمة لما يسميه : « الصعلوك الفائق » le bandit supérieur ؛ ومن هذه الصفات الإقدام والصبر . وأما لامنس فإنه يرى العربى ميّالا إلى الانزواء ، فهو عنده حيوان غير مستأنس ، ولا سبيل له

---

(١) التفرد : أن ينقبض الرجل عن جماعته قبيلة كانت أو أمة . والتماسك أن يكون بين رجال الجماعة الواحدة التام وتآزر وتعاون . (ظ بعد : المبحث السابع .)

(٢) Lammens, *Le Berceau de l'Islam* رومة ١٩١٤ ص ١٨٧ ى .

(٣) Gaudefroy - Demombynes, *Le Monde Musulman* باريس ١٩٣١ ص ٥٧ . ز مراجعته لرأيه فى " العرض عند عرب الجاهلية " *Préface* ص X (ح) ٢ .

— لخشونةٍ فى طبعه وفتورٍ فى إحساسه — إلى أن يؤثر غيره على نفسه فى سبيل منفعة الجماعة .

على أنى أحسبك لا تنقاد لمثل هذه الاستدلالات ، فلا تنزل إلا على حكم الواقعات الملموسة . كيف تطمئن إلى نظر قريب المرمى يبرُز به الإنسان مستقلاً بنفسه ، طوع سجيته دون غيرها ؟ إنّ الذى أميل إليه أن الإنسان جملة صلات اجتماعية une somme de rapports sociaux . فإن نحن حددنا العربى فى الأرض التى يضرب فيها ، وحصرناه فى المحيط الذى يلفّه ، ثم استجلينا الواقعات واستندنا إليها ، كشفنا الستر عن الائتلاف الناهض بين أفراد الجماعة الواحدة ، معنوياً كان أو حسّياً .

إن من شواهد التماسك المعنوى عند العرب أن الرجل كان يعتد بعشيره contribute ويعتزّ به ، أوَ تنسى قول مسكين الدارمى :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح ؟[٤]

ثم كان يفخر بقبيلته بل يغالى فى الفخر حتى إن الشرع أبطله : « يـٰأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . » ، كما ترى فى مبحثٍ آتٍ (ص ١٠١) .

هذا وإن الائتلاف المعنوى كان يبلغ بالعرب أن يُعاب الجمع أو يُمتدحوا إذا أساء أحدهم أو عمل صالحاً[٥] . ومن هنا ترى العشيرة

(٤) "الأغانى" مصر ١٢٨٥ ج١٨ ص ٧٠ . ظ الشاهد ١٦٧ من "خزانة الأدب" للبغدادى .

(٥) الجاحظ "البخلاء" مصر ١٣٢٣ ص ١٩٧ .

اختار أحدهم أن يمدح الشاعر قومه بدلاً منه : "حماسة أبى تمام" مصر ١٣٤٦ ج ٢ ص ٣٥٨ (ح) .

تنفر ممن يُلحق بها العار[٦] ، وتَعضد من يرقى درجات المجد[٧] .

وكان الشاعر إن هجا أحداً من الناس انبسط الهجاء — من ذى نفسه — على جماعته . وشاهد ذلك أن الحطيئة سأل ابن عباس ابن عم الرسول قال : « أرأيت امرءا أتانى فوعدنى وغرّنى . . . أيسعُنى أن أهجوه ؟ » قال ابن عباس : « . . . لا يصلح الهجاء لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته ، فتظلم من لا يظلمك ، وتشتم من لا يشتمك ، وتبغى على من لم يبغ عليك »[٨] .

وإذا رجعنا إلى الشعراء أصبنا الأدلة على التماسك المعنوى عند العرب. وإليك بعض الأمثلة : قال دريد بن الصمَّة :

وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت　　غويت وإن ترشد غزيّة أرشد[٩] ؟

ومثله قول هدبة بن خشرم :

وإنى من قضاعة من يكدْها　　أكدْه وهى منى فى أمان[١٠] .

وعليه قول المتلمّس :

أمنتقلا من آل بهثة خلتنى　　ألا إننى منهم وإن كنت أينما
ألا إننى منهم وعِرضىَ عرضهم　　كذى الأنف يحمى أنفه أن يكشما[١١] .

---

(٦) " الأغانى " ج ١٢ ص ٥١ .
(٧) ذ ج ١٦ ص ٩٩ ى (حكاية حاتم طيّ وبنى لام) .
(٨) ذ ج ٢ ص ٥٨ .
(٩) أبو زيد القرشى " جهرة أشعار العرب " مصر ١٣٠٨ ص ١١٧ .
(١٠) " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٢٢ ج ١ ص ١٣١ . ز قول حسان بن ثابت " شرح ديوان حسان بن ثابت " مصر ١٩٢٩ ص ١٣٩ :

سأوتى العشيرة ما حاولت　　إلىّ وأكذب إيعادها
وأحمل إن مَغرم نابها　　وأضرب بالسيف من كادها

(١١) " شعراء النصرانية " ط شيخو ، بيروت ١٨٩٠ ص ٣٨٧ ى .

ويؤخذ من هذا أن رجال القبيلة كانوا بنياناً واحداً ، وأبناء جلدةٍ واحدة . والدليـل أن الشاعر كان يتمنّع أن يهجو جماعته . من ذلك قول هدبة بن خشرم فى قومه :

سأهجو من هجاهم من سواهم   وأُعرض منهمُ عمن هجانى[١٢] .

ولعل شاعراً لئياً يخطر له أن يشتم قومه كما صنع الشمّاخ[١٣] وعميرة بن جعيل والحرمازى[١٤] . ومما يشهد أن هذا الأمر كان قبيحاً عندهم أن الشاعر ربما اتفق له أن ينـدم على شتمه . قال كعب بن جعيل :

ندمت على شتم العشيرة بعد ما   مضى واستتبّت للرواة مذاهبه[١٥] .

ولولا أن هذا الأمر كان قبيحاً مردوداً ما أنكرت قريش أن يهجو بعضها بعضاً ، وما عاقبت الهاجى بقطع لسانه[١٦] ، وما قال كعب بن مالك :

وأغضوا عن الفحشاء لا تعرضوا لها   ولا تطلبوا حرب العشيرة بالثلب
ولا تقضبوا أعراضهم فى وجوههم   ولا تلمسوها فى المجالس والركب[١٧] .

---

(١٢) " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٢٢ ج ١ ص ١٣١ . " حماسة البحترى " مصر ١٩٢٩ ص ٣٨٧ ش ٣ .
(١٣) " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٤٦ ج ١ ص ٤٥٢ (ح) .
(١٤) ابن قتيبة " كتاب العرب " فى " رسائل البلغاء " ط محمد كرد على ، مصر ١٩١٣ ص ٢٨٠ .
(١٥) الألوسى " بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب " مصر ١٩٢٤ ج ٣ ص ١٤٨ .
(١٦) ابن سلام " طبقات الشعراء " ط مطبعة السعادة (وهى طبعة رديئة جداً) ص ٩١ .
(١٧) " حماسة البحترى " ص ٣٨٧ ى .

وذلك لأن العرب كانت ترغب عن حمل الضغائن بين أبناء القبيلة وتكره الوقيعة بالعشيرة . قال النمر بن تولب :

فدعوا الضغائن لا تكن من شأنكم   إن الضغائن للقرابة تقـذع .

وعليه بيت معقل بن قيس :

وأعرض عما ساء قومى ثناؤه   وأستصلح الأدنى وان كان ظالما[١٨]

ذهاباً منهم إلى أن غضب العشيرة يجعل الرجل من أضيع الناس حظا . ألا ترى الى أبى زُبيد الطائى كيف قال :

وان امرءاً لا يتقى سخط قومه   ولا يحفظ القربى لغير موفّق[١٩] ؟

ومن ذلك طاعتهم للعشيرة[٢٠] .

تلك شواهد على التماسك المعنوى عند عرب الجاهلية . ومما يلحق بها أن أفراد الجماعة الواحدة ، عند العرب لعهدنا هذا ، يشد بعضهم إلى بعض تماسك محتبك[٢١] ، وأن النساء عندهم يعدلن عن تلمّس أزواج غرباء عن جماعتهن ، لشدة تمسكهن بها[٢٢] .

وإذا نقلنا التماسك من جانب المعنى إلى جانب الحسّ ، عرفناه فى أحوال شتى ، منها هذه :

(١٨ ، ١٩) ذ ص ٣٨٧ ى .

(٢٠) الجاحظ " مناقب الترك " فى " مجموعة رسائل " مصر ١٣٢٤ ص ١٢ .

(٢١) Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* باريس ١٩٠٨ ص ٤٣٠ .

Burckhardt, *Notes on th Bedouins...*, London 1831 ج ١ ص ٣٦١ .

(٢٢) *Moab* ص ٢٥ .

ا — لم يكن العربى ليفعل ما يبدو له . فقد قال أعرابى : « ما غبنت قط حتى يغبن قومى . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم »[٣٣] .

ب — كان العربى إذا صرف همه عن جماعته وراح يجر المنافع إلى الغرباء ، ذمه قومه واستثقلوه . قال أبو الدبيّة الطائى :

وأنت امرؤ منا خُلقت لغيرنا   حياتك لا ترجي وموتك فاجع[٣٤] .

ح — كان يبلغ سعى الرجل فى سبيل عشيرته أن يبذل ابنته فيزوّجها غريباً عزيز الجانب . ومما يُروى فى هذا الباب أن البرّاق خطب ابنة عمه إلى أبيها لُكَيْز فوعده بها ، ولكنّ لكيزا كان يختلف إلى ملك من ملوك اليمن يصله ويُجزل له العطاء ، واتفق أن وقعت ابنة لكيز فى قلب الملك ، فطلبها الملك إلى لكيز ، فزفها الرجل إليه ، وفى مأموله أن يكون حصناً لقومه وفرجاً لشدائدهم[٣٥] .

وبعدُ فإنا لنلمس التماسك الحسى عند العرب فى الحرب والجوار والنجدة والثأر :

أما الحرب فقد كان العربى « أخاها »[٣٦] و « ابنها »[٣٧] على قولهم . ومعنى ذلك أن الحرب كانت شأن العرب[٣٨] . فلم يكن لهم سبيل عن

(٢٣) « البيان والتبيين » مصر ١٣١١ ج ٢ ص ٣١ .
(٢٤) « حماسة البحترى » ص ١٧١ .
(٢٥) « شعراء النصرانية » ص ١٤١ .
(٢٦) « حماسة البحترى » ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٢٧٠ .
(٢٧) « بنو الحرب يوماً إذا استلأموا » : « المفضليات » القسطنطينية ١٣٠٨ ج ١ ص ٢٣٥ . ز « جمهرة أشعار العرب » ص ١٢٣ .
(٢٨) ظ « العرض عند عرب الجاهلية » ص ١٠٢ ى ى .

التضافر والمؤازرة ، وهم قوم يأبون الضيم ولا يقيمون على خسف . والعرب فى هذا تذكّر بالجماعات التى يدرجها بِرْجْسُنْ Bergson ، الفيلسوف الفرنسى ، فى أمم يجتمع أفرادها على الهجوم والدفاع[٢٩] .

وأما الجوار فكان المستجير إذا انقطع إلى رجل واحد أعانه الحى[٣٠] . وذلك لأن الجار تحميه القبيلة . قال عبد الله بن رواحة :

إذا ندعى لثار أو لجار فنحن الأكثرون بها عديدا[٣١] .

وإنك لتصيب هذا عند عرب شرقّ الأردن لهذا العهد[٣٢] . وذلك ما يعلل الحروب التى شبّت بين الحى المجير وطرّاد المستجير[٣٣] .

وأما النجدة فكانت العرب تصير فيها « يداً واحدة » . قال حرَيث ابن محفض المازنى :

ألم تر قومى إن دعاهم أخوهمُ

أجابوا وإن يغضب على القوم يغضبوا[٣٤] ؟

---

(٢٩) *Les deux sources de la Morale et de la Religion*, Paris, 1933 الفصل الأول . ظ تهدى لهذا الكتاب فى " الهلال " أبريل ١٩٣٤ ص ٦٩٦ ى ى . ز بين تماسك العرب وتماسك الأمم الفطرية من ناحية الحرب ، وارجع هنا إلى Maurice Davie, *La Guerre dans les Sociétés primitives*, Paris 1931 ص ٤٢ ، ٦٧ خاصة .

(٣٠) " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٤٦ ج ٢ ص ٢٦٧ (ح) .

(٣١) " جمهرة أشعار العرب " ص ١٢٢ .

(٣٢) بولس سلمان " خمسة أعوام فى شرقّ الأردن " حريصة (لبنان) ١٩٢٩ ص ١٣٠ . ز أيضاً ص ١٢٥ ؛ Burckhardt ص ١٧٦ ى .

(٣٣) ابن الأثير " الكامل فى التاريخ " ليدن ١٨٦٢ ى ى ج ١ ص ٤٧٠ ى ى . " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٦٤ ج ١ ص ٤٧ (ح) .

(٣٤) " طبقات الشعراء " ص ٧٤ .

ومما يذكر فى هذا الموطن ، على سبيل المثل ، أن البراق لما انطلق إلى خطيبته ليستردها ناصره عشراؤه .

هذا وإنك تلمس تماسك العرب الحسى فى الثأر فوق ما لمسته فيما مضى من التبيينات . ومجمل القول هنا أن الثأر على ضربين : فإما أن يكون فعّالًا actif ، وهو الأخذ بالثأر ، أو انفعالياً passif ، فينحصر فى تَبِعة الجماعة . أما الثأر الانفعالى : فرجال الحى مأخوذون بالجناية التى يجرُّها أحدهم . ولولا أن العرب كانت تقتل الجماعة بالواحد ، فتثور الفتنة ، ما جاء فى الكتاب : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلّكم تتقون »[٣٥] ، وما زالت البدو على هذا حتى اليوم ، إلّا إذا أعلن الجانى أنه خصّ نفسه بتبعة ما اقترفت يداه[٣٦] . وتعليل ذلك أن كل فرد مسؤول عن جماعته ، لأنه جزء منها ، من حيث إن ما لها له وما عليها عليه[٣٧] . ومن هنا كان الموتور يتشفّى بأى رجل ، على أن يكون من حى القاتل[٣٨] ، ومن هنا كان أهل الحى يتعاونون على الدية[٣٩] .

ومما يدفع إلى الحيرة أن لامنس (الذى يُسند التفريط فى التفرد إلى العربىّ) يقول ما مُفاده : « كل فرد عند العرب يرى من الفروض

---

(٣٥) سو ٢ ، آ ١٧٨ .

(٣٦) "خمسة أعوام فى شرق الأردن" ص ١٣٨ .

(٣٧) *Moab* ص ١٤٥ ى .Burckhardt ص ٣١٦ .

(٣٨) "الأغانى" ج ١٦ ص ٢٧ . ذ ج ١٥ ص ١٥٣ : « وقتلت بنو سلول رجلا من خثعم مكان المقتول » .

(٣٩) ذ ج ٩ ص ٨٥ — ثم اذكر هنا « الخليع » ، و « الخليع الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرؤن منه ومن جنايته ... » : "لسان العرب" ج ٩ ص ٤٣٠ ؛ ظ "العرض عند عرب الجاهلية" ص ٢١١ (ح) ٣ .

عليه أن يخلّص الجانى ، ويشترك فى الدية ، كأنه يشترك فى فكّ أسير أو اصطناع معروف ، رعايةً منه أنْ ستكون به حاجة إلى مثل هذا التماسك»[٤٠] .

ذلك ما يتعلق بالثأر الانفعالىّ . وأما الثأر الفعّال فالتماسك فيه لا يقل بروزاً . ومن شواهد ذلك أن الرجل إذا قُتل اضطُر أهله إلى الأخذ بثأره . قال لبيد بن ربيعة يحض على المطالبة بدم عروة الرحال :

فأبلغْ إن عرضت بني نمير وأخوال القتيــل بنى هلال
بأن الوافــد الرحّال أضحى مقيما عند تيمن ذى الظلال[٤١] .

وينهض لذلك الأعمام والأخوال[٤٢] . وفى الحقيقة أن القبيلة كلها كثيراً ما كانت تثأر بالقتيل[٤٣] ، فتغزو أو تنصب الحرب[٤٤] . وأما اليوم فيتّفق أن يعلن بعض أفراد القبيلة أنهم ثائرون بالقتيل عنها[٤٥] .

---

(٤٠) ظ ... *L'Arabie Occidentale* بيروت ١٩٢٨ س ١٨٩ ·

(٤١) "الأغانى" ج ١٩ س ٧٥ · للتحريض على « القتل بالثأر وترك قبول الدية » ، ظ "حماسة البحترى" س ٣٠ ى ى · ز عند عرب هذا العهد *Moab* س ٢٠١ ؛ "خمسة أعوام ..." س ١١٨ ·

(٤٢) يقول بروكش Procksch فى كتاب وقفه على الثأر عند عرب الجاهلية *Ueber die Blutrache bei den vorislamischen Arabern*..., Leipzig, 1899 س ٣٨٨ ى : « إن الأعمام يثأرون بالقتيل دون الأخوال » · فى "شعراء النصرانية" س ٧٦١ أن الآخذ بالثأر يرفض أن يستعين بخال له ، مخافة أن يقال فيه إنه جبان · فللأخوال إذن أن يستعان بهم على طلب الدم . وشعر لبيد قبل يؤيد هذا .

(٤٣) "شعراء النصرانية" س ٧٦١ . "حماسة البحتري" س ٣٢ ش ٦ — ١٠ . "الأغانى" ج ١٥ س ٥١ .

(٤٤) ابن الأثير ج ١ س ٤٠٣ ، ٤١١ ى ى ٤٣٥ ، ٤٧٥ ، ٤٩٥ ·

(٤٥) "خمسة أعوام ..." س ١١١ .

تلك هى الحجج المختلفة التى تثبت أن العرب كانوا قوما متماسكين . ولعلك تجد معى أنها مستخرجة من الواقعات لا مرتجلة[٤٦] .

على أن هنالك مبحثاً يكون من مبحث التماسك بمكان الأس من البنيان . ذلك أن تماسك العرب مصدره القرابة وما يترتب عليها من العصبية ، تلك العصبية التى أفاض ابن خلدون فى الكلام عليها ما شاء الله أن يُفيض[٤٧] . إلا أن هذا المبحث الآخر يخرجنا عما نحن فيه ، فحسبى الإشارة إليه .

(٤٦) لصحة الاستشهاد بأدب الجاهلية وصدر الإسلام ، ارجع الى " العرض عند عرب الجاهلية " ص ٧ — ٢٠ .

(٤٧) " مقدمة " بيروت ١٩٠٠ ص ١٢٨ ى ى .

٥

البنـــاء الاجتماعى عند عرب الجاهلية

لا شك أن القبيلة بنو أبٍ واحد[١] ، من حيث إنها تحتمل تجمُّع أُسَرٍ أرومتُها واحدة . إلاَّ أن التجمّعات تتفاوت فى القلة والكثرة ، وفى التعقد والبساطة . زد على ذلك أن للعرب ضروباً من التجمهر غير « القبيلة » ، فهنالك : « القوم »[٢] و « العشيرة »[٣] و « المعشر »[٤] و « الرهط »[٥] و « الحىّ »[٦] ، إلى جانب تعابير نحو قولهم : « بنو فلان »[٧] و « آل فلان »[٨] .

---

(١) " المخصص " مصر ١٣٢٠ ج ٣ س ١٢٠ . القلقشندى ، ظ بعد (ح) ٩ .

(٢) مثلاً : " حماسة أبى تمام " مصر ١٣٤٦ ج ١ س ٦٤ ى ج ٢ س ٣٥٨ . " حماسة البحترى " مصر ١٩٢٩ س ٣٠ ، ٣٨٧ . الجاحظ " البيان والتبيين " مصر ١٣١١ ج ١ س ٧٣ .

(٣) " الأغانى " مصر ١٢٨٥ ج ١٥ س ٥٣ . ذ ، ط دار الكتب مصر ١٩٢٧ ج ٢ س ١٩٢ . ابن رشيق " العمدة " مصر ١٣٢٥ ج ٢ س ١٣٩ . ز قبل س ٧٨ .

(٤) " البيان والتبيين " ج ١ س ٧٣ . ابن قتيبة " عيون الأخبار " مصر ١٩٢٥ ج ١ س ٢٩٢ س ١١ . " الأغانى " ج ٦ س ٨٨ . " حماسة البحترى " س ٣١ ، ٣٤ .

(٥) " عيون الأخبار " ج ٤ س ٤ . " الأغانى " ج ٨ س ٨٢ ج ٩ س ٦ . " حماسة أبى تمام " ج ٢ س ٢٣٩ . المبرد " الكامل " القسطنطينية ١٢٨٦ س ٦ .

(٦) " حماسة أبى تمام " ج ١ س ٨٦ ، ٨٨ . " حماسة البحترى " س ٣٢ .

(٧) " حماسة أبى تمام " ج ٢ س ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ . " شرح ديوان حسان بن ثابت " مصر ١٩٢٩ س ٦٢ . " شعراء النصرانية " بيروت ١٨٩٠ س ١٤٩ .

(٨) " حماسة أبى تمام " ج ١ س ٦١ . ظ قبل س ٧٧ س ١٤ .

والذى عندى أنه ينبغى للباحث أن يلتفت إلى هذه الأقسام ، فينزل كلا منها منزلتها من الفئة الشاملة . وعلى هذا الأسلوب يفحص عن بناء العرب الاجتماعى morphologie sociale :

إن أنساب العرب — بحسب مذهب الماوردى[٩] — تتدرج على هذا الترتيب : الشعب (وهو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان) ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . وكل واحدة من هذه الطبقات متشعبة من الطبقة التى تسبقها توًا . ويزيد الماوردى أن الأنساب إذا تباعدت (يعنى إذا تقادمت وتراجعت فى الزمان فضخم النسل) صارت القبائل شعوباً والعمائر قبائل . . . إلى آخره .

والوجه أن هذا الترتيب مفتعل بعض الافتعال . ودليل ذلك أنك رأيت فى فاتحة هذا المبحث أن النصوص تعرض لنا أقساماً للقبيلة نحو الرهط وغيره . وهذا الماوردى يغفلها ، على أن ثمة من يثبتها فى الحديث الموقوف على الجماعات عند العرب[١٠] .

والذى لا معدل عنه ، أن يتدبر الباحث مسمّيات تلك الأقسام واحداً واحداً ، إن أراد النظر فى البناء الاجتماعى عند العرب . وهذا أمر

---

(٩) " الأحكام السلطانية " Bonn ١٨٥٣ ص ٣٥٣ . ز " العقد الفريد " مصر ١٢٩٣ ج ٢ ص ٥٥ . " لسان العرب " ج ٥ ص ٣٧ ٠ القلقشندى " نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب " بغداد ١٣٣٢ ص ١٢ ى ٠ وهناك ألوان من الترتيب : ظ النويرى " نهاية الأرب فى فنون الأدب " مصر ١٩٢٤ ج ٢ ص ٢٩١ ى ى ؛ الألوسى " بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب " مصر ١٩٣٤ ج ٣ ص ١٨٩ ٠

(١٠) ظ الألوسى ش ك ٠ ز الثعالبى " فقه اللغة " بيروت ١٨٨٥ ص ٢١٧ ى ؛ ابن السكيت " مختصر تهذيب الألفاظ " بيروت ١٨٩٧ ص ٢٢ ى ى ؛ الهمذانى " الألفاظ الكتابية " بيروت ١٩١٣ ص ٢٧٤ ٠

من وراء الطاقة ، لأن هذه المسميات — على ما تبدو — يكاد بعضها لا يختلف عن بعض . فهى على جانب عظيم من الإغلاق والاشتباه . مصداق ذلك أن الحى ربما استُعمل للدلالة على الطبقات الست التى يسردها الماوردى[١١] . وأما قولهم : « بنو فلان » و « آل فلان » فكانا يقومان مقام طائفة من هذه الطبقات[١٢] . وعلى فرض أنهما يدلان على فئة معينة ، فالله أعلم ما كيفها وما كمّها[١٣] .

ويُضاف إلى ذلك أن سائر المسمّيات التى تفيد أقسام القبيلة وتفاريقها ليست على شىء من الدقة ، بل الأقوال فيها متضاربة .[١٤] ولمحة إلى باب "أسماء الجماعات" من كتاب "المخصص" لابن سيده (ج ٣ ص ١١٨ — ١٣١) وغيره من المؤلفات ، تؤيد ما أذهب إليه . وإليك التفصيل :

أما « العشيرة » فكأنها تلتبس بالقبيلة[١٥] ، وقيل : إنها

---

(١١) الألوسى ج ٣ ص ١٩٠ . ز "تاج العروس" ج ١٠ ص ١٠٥ س ٣ تحت . وفى "نهاية الأرب ..." للقلقشندى ص ١٣ : « وربما عبر عن واحد من الطبقات الست بالحى ، إما على العموم مثل أن يقال : حى من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال : حى من بنى فلان » .

(١٢) الألوسى ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(١٣) إليك مثلاً "حماسة أبى تمام" ج ١ ص ٤٨ ، ٥٠ (ح) ، ٩٠ (ح) ، ج ٢ ص ٢٠٣ . ز "تاج العروس" ج ١٠ ص ١٠٥ س ٢ تحت : « ... كثروا أو قلوا » .

(١٤) وكذلك المسميات التى تفيد أقسام الجماعة عند بدو هذا الزمان : ظ Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* باريس ١٩٠٨ ص ١١٢ .

(١٥) "المصباح المنير" مصر ١٩١٢ ص ٦٢٨ . "تاج العروس" ج ٣ ص ٤٠٢ .

« بنو العم »[١٦] . وأما « المعشر » فإنْ هو إلا الجماعة من الناس[١٧] ، وبعضهم يرى فيه أهل الرجل أى أسرته[١٨] . وأما « القوم » فقيل : الجماعة يكونون من الثلاثة فصاعداً[١٩] ، وقيل : الجماعة من أب واحد[٢٠] ، وقيل : جماعة رجال لا نساء فيهم[٢١] ، وقيل : الجماعة من الرجال والنساء معاً[٢٢] . وأما « الرهط » فقيل : كالنفر أى ما دون العشرة من الرجال[٢٣] ، وربما جاوز ذلك بعض المجاوزة[٢٤] ، وقيل : العشيرة ، وقيل : القوم والقبيلة[٢٥] .

هذا وهنالك مسمَّيات أخرى ، ولكنها محدودة . من ذلك قولهم : « بنو الأعيان » و « بنو العَلّات » و « بنو الأخياف »[٢٦] .

والخلاصة أن الناظر فى الألفاظ الدالة على بناء العرب الاجتماعى كالناظر فى كتاب تداخلت سطوره . على أننا لا نشك أن تلك الألفاظ كانت

(١٦) أبو زيد القرشى « جمهرة أشعار العرب » مصر ١٣٠٨ ص ٨٩ .
(١٧) « المصباح المنير » ص ٦٢٨ .
(١٨) « تاج العروس » ج ٣ ص ٤٠٢ .
(١٩) « المخصص » ج ٣ ص ١١٩ (عن أبى على) .
(٢٠) « المصباح المنير » ص ٨٠٢ .
(٢١) « المخصص » ج ٣ ص ١١٩ (عن أحمد بن يحيى) .
(٢٢) « تاج العروس » ج ٩ ص ٣٤ . الميدانى « أمثال » مصر ١٣٤٢ ج ١ ص ٢٧ .
(٢٣) « المخصص » ج ٣ ص ١١٩ (عن أبى عبيد) .
(٢٤) ذ (عن ابن دريد) .
(٢٥) « المصباح المنير » ٣٧١ . « تاج العروس » ج ٥ ص ١٤٤ .
(٢٦) « فإذا كانوا بنى أب واحد وأم واحدة فهم بنو الأعيان . فإذا كان أبوهم واحداً وأمهاتهم شتى فهم بنو العلات . فإذا كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتى فهم بنو الأخياف » : الثعالبى « فقه اللغة » ص ٢١٨ . ز « لسان العرب » ج ١٧ ص ١٨١ س ١٢ ى ى .

تفيد جماعات متميّزة distinctes ، قليلاً أو كثيرا ، لأنه من الشطط أن يقال إنها كانت جميعها مترادفة . والمتبادر إلى الذهن أن مفاداتها — مُحقّقةً — غابت اليوم عنا ، إذ ليس بين أيدينا نصوص تحدّدها وتعرّفها على نحوٍ ينفى عنها اللبس ، وينزهها عن الإشكال . فضلاً عن أننا أصبحنا لا نكاد نصيبها عند بدو هذا العصر ، إذ هجرتْ ألسنتَهم أو ماتت دون شفاههم ، أو تحولت من مدلول إلى مدلول[٢٧] .

لا جرم أن الأمر مما يضيق به الصدر . فها نحن أولاء لا نقدر أن نفحص عن بناء العرب الاجتماعى فى زمن الجاهلية .

وعسى أن نسدد النظر فى ذلك البناء من جهة اعتبار العدد . غير أن من وراء ذلك قليلَ رجاء . من يقول بأنه يستطيع أن يرسم لذلك البناء خِطّةً تتدرج من الفئـة ذات الجزء الفرد حتى تنتهى إلى الفئة الجامعة لأجزاء كثيرة .

فإن نحن سلـكنا طريقة الماوردى ، أوحذونا حذو غيره ممن عرض لاستجلاء بناء العرب الاجتماعى ، صرنا — فى مختتم المسلك — إلى تحليل غير وافٍ ولا مجدٍ . وسبب ذلك أن هذا التحليل إنما يكون من الخارج du dehors على تعبير الفلاســفة ، لأنه لا يعمد إلى ترتيب أقسام القبيلة الشاملة بالنظر إلى خواصّها ، نحو درجة قرابة أفرادها ومقـدار مجانستهم homogénéité[٢٨] ، بل بالنظر إلى تعاقبها فى الزمان ، أعنى تشعب

(٢٧) *Moab* ص ١١١ ى (ح).

(٢٨) ظ لفظة « المجانسة » : ابن سينا " النجاة " مصر ١٣٣١ ص ٣٢٤ تحت ، ص ٣٦٥ س ١١ . ز ترجمة Carame, *Avic. met. compendium* رومة ١٩٢٦ ص ٤ ، ٦٥ ؛ Goichon, *Introduction à Avicenne*

بعضها من بعض ونسبة هذا القسم إلى ذاك من جهة اتساعه . وهذه الطريقة الأخيرة لا تغنى شيئاً جليلا ، وبيان ذلك أنّ الباحث إن علم أن « القبيلة » تضم « العمائر » وأن « العمارة » تضم « البطون » إلى آخر ما هنالك ، فهيهات أن يعرف ما يميز بعضها من بعض من حيث البناء الاجتماعى .

فتراني حينئذ مضطراً إلى أن أدرج الفئات كلها — من غير تمييز — تحت لفظة « الجماعة » ، ذلك بأن الجماعة تستغرقها جميعاً لما هى عليه من العموم ، بل أصارح فأقول : لما هى عليه من الإبهام . فاستعمالها فى هذا الموطن — إذَنْ — خير من استعمال لفظة « القبيلة » للقصر الذى ألحقه بها مثل ترتيب الماوردى ، كما مر بك .

على أنى أعد كل واحدة من هذه الفئات — سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، شاملة أم مشمولة — طائفةً من الناس تحولهم صلة الرحم وشَركة الاسم والمنزل والتملك إلى « جماعة » تستمد عزّتها من جاه رئيسها وقوّة تقاليدها ، ثم من اتفاق شعور أعضائها وتساير عواطفهم وعاداتهم ، ثم من تماسكهم الفعّال والمنفعل جميعاً .

ولعل ظانًا يظن أن العربى كان يلحق بما يزيد على فئة ، وربما قرّب هذا الظن إلى رأيه ما شهده المستشرق جوسين JAUSSEN عند عرب مؤاب لهذا العهد ، فقد حكى أن ثلاثة أحياء من قبيلة واحدة كان بعضهم على بعض حربا ، حتى إذا كرّ العدو الغريب عليهم تحالفوا وثبتوا له صفّا[٢٩] .

باريس ١٩٣٣ ص ٣٠ . ومن ذلك : « المجالس » ، ط ابن سينا تسع رسائل ... مصر ١٩٠٨ ص ٩٦ .

(٢٩) *Moab* ص ١١٤ .

والذى فى الواقع أن العربى ماكان ليلحق بفئتين أو ثلاث فى آنٍ إلا بالقوة en puissance ؛ وأما بالفعل en acte فلم يلحق إلا بالفئة التى كان يعمل لها . فكان الحى ينازل الحى المجاور ، ثم يتحالفان لقرابة بينهما ، فيشنان الغارة على الجماعة الغريبة عنهما[٣٠] .

ويتصل بهذا أن العربى إذا فخر بأبى قبيلته لم يرجع لساعته إلى فخذه ، مثلاً ، بل إلى القبيلة ؛ وإذا اتفق له أن يفخر بأبى فخذه أفلت لوقته من سلطان قبيلته . ومن هنا يتبين أن كل فئة كانت تحيا فى ذاتها وبذاتها en soi et par soi ، مع الصلات التى كانت بينها وبين الفئات التى يتشعبن منها ، أو بينها وبين الفئة التى تتشعب هى منها .

وكأنى بك تعترض علىّ بأن عناصر العِرض فى الجاهلية[٣١] ربما اختلفت باختلاف الجماعات . فالواقعات تدفع هذا الاعتراض دفعاً ، إلا فيما يتعلق بالأسرة . ولذلك أجعل بين « الأسرة » أى « الأهل » و « الجماعة » أى أفراد القبيلة أو الحىّ إلى آخر ما هنالك ، حداً فاصلا :

إن الأسرة البدوية لهذا العهد تضمُّ الأقارب الأدنين وذراريهم ، أى جميع الذين يقيمون ببيت واحد ويخضعون لسيد واحد[٣٢] . على أنى أعترف بأنى أجهل هل كانت الأسرة تعدو حدود البيت فى زمن الجاهلية . وقصة هذا أن الأسرة — فى ذلك العهد — كان يعبَّر عنها بلفظة : الأهل[٣٣] ،

---

(٣٠) وتلمس حياة هذه العادة فى المثل الشائع على ألسنة العامة : « أنا واخويا على ابن عمى ، وانا وابن عمى على الغريب » .

(٣١) والتى وصفتها فى " العرض عند عرب الجاهلية " .

(٣٢) *Moab* ص ١٢ ى .

(٣٣) البخارى " صحيح " مصر ١٣٤٣ ج ٣ ص ٢٥ . " العقد الفريد " ج ١ ص ٥٠ . " شرح ديوان حسان ... " ص ١٢٩ . ز " الأغانى " ج ٢ ، ص ١٩١ ج ١٦ ص ٢٣ ؛ الميدانى " أمثال " ج ٢ ص ١٧٨ ، ٢٩٩ .

فيما يغلب على الظن . وهذه اللفظة تكاد تبدو أقل اشتباهاً من الألفاظ التي سقناها عند الكلام على أقسام القبيلة(٣٤) .

والنتيجة أن كلاً من الأسرة والجماعة يعصى على الحد الدقيق . إلاّ أنه من البعيد أن تلتبس الأسرة بالجماعة . فكل واحدة منهما تتميز من صاحبتها . ودليل ذلك أنك إن اطلعت على النصوص الجاهلية ، فرقت — من طريق السياق ، في غير كلفة عليك — بين الأسرة والجماعة ، كلما انتقلتَ من خبر إلى خبر ، على جهلك مقدار اتساع الجماعة ، وكيفية بناء الأسرة(٣٥) .

ثم ز "المصباح المنير" ص ٤٧ . وفي "المخصص" ج ٣ ص ١٢٨ : « أهل الرجل أخص الناس به » (عن أبي زيد) . ثم ظ الأحاديث النبوية المدونة في المسانيد المعتبرة ، وتجد مواطنها في : ا . ى . فنسنك Wensinck "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" ليدن ١٩٣٤ ى ى ، الفصل الثالث ص ٢٣٦ ى ى (أهل بيت الرجل) .

(٣٤) مثلا : "تاج العروس" ج ٧ ص ٢١٧ . "القاموس المحيط" ، مصر ١٢٨٩ ج ٣ ص ٣٨١ : « أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه » . وفي "أساس البلاغة" مصر ١٩٢٢ ج ١ ص ٢٦ : « تأهل الرجل : تزوج ؛ ورجل آهل » ؛ وفي الحديث : « انه أعطى العزب حظا وأعطى الآهل حظين » ؛ وفي "المصباح المنير" ص ٤٧ : « ويطلق الأهل على الزوجة ، والأهل أهل البيت ، والأصل فيه القرابة وقد أطلق على الاتباع » . ومن ذلك قولهم : « مرحباً وأهلاً ، أي صادفت أهلا لا غرباء » ("القاموس المحيط" ض ك) . ثم اتسع معنى لفظة الأهل، فقيل : « أهل البلد من استوطنه ؛ وأهل العلم من اتصف به... والأهلي من الدواب ما ألف المنازل » ("المصباح المنير" ض ك) .

(٣٥) لم أستعمل لفظة « الأسرة » جزافا . فالثعالبي في "فقه اللغة" ، بيروت ١٨٨٥ ، ص ٢١٨ ، أثبتها في خاتمة "تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة" . ز ما جاء في "المخصص" ج ٣ ، ص ١٣٠ ؛ "تاج العروس" ج ٣ ص ١٣ ؛ "نهاية الأرب..." ج ٢ ص ٣٠٠ . وفي "لسان العرب" ج ٥ ص ٧٧ ما حرفه : « أسرة الرجل عشيرته ورهطه الأدنون » ثم « عشيرة الرجل وأهل بيته » . فاستناداً إلى هذا الحرف (وإن لم ينزع الإشكال ؛ وما أبعدَ بعض الألفاظ العربية القديمة عن الوضوح التام المتأخرين !) ، تفيد الأسرة ما تسميه عامة مصر : « العائلة » (وتستعمل الآن في مصر بهذا المعنى) .

٦

تاريخ لفظة الشرف

(محاولة)*

سَلْ أحداً من العامّة : ما الشرف ؟ يأخذ فى حديث طويل لا مدخل له ولا مخرج . وسبب ذلك أنّ الشرف مُدرَك مُلتبِس concept confus ، والمدرَكات الملتبسة يتعذّر تحديدها على ذهن فاته التهذيب . ثم سل أحداً من المتأدبين : أىّ شىء يفيد الشرف ؟ تدفعه إلى الحيرة ، ذلك أنه يعلم أن للفظة الشرف مفاداتٍ متجاورة تارةً ، متباينة أخرى[1] . وإذا قلتُ الشرف عنيت تلك الكلمة التى نعرفها كلنا ، ونستعملها استعمالا مطّرداً بما تواضعنا عليه من المعنى .

فالشرف لفظة مشتبِهة . وأقطع دليلٍ على هذا أنّ المتقدمين من أهل اللغة عدّوها كذلك . فهذا ابن فارس من أئمّة المئة الرابعة يقول :

---

* أُلقى هذا البحث مختصراً ، على سبيل الإمداد ، فى مدرسة العلوم الشرقية للجامعة الأمركية فى القاهرة فى الأول من مارس سنة ١٩٣٩ .

(١) للفظة الشرف ومشتقاتها مدلولات لا نلتفت إليها هنا ، وتجدها فى المعجمات . وهى متروكة أو قليلة الاستعمال . منها : أذن شَرْفاء : طويلة ، الإشراف : الشفقة ، الشارف من الإبل : المسنّ ، الشرف : الطين الأحمر والوجه ، الخ . ظ مثلاً « لسان العرب » ج ١١ ص ٧٥ ى .

« ومن المشتبِه الذى لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال ، وما هو بغريب اللفظ ، لكنَّ الوقوف على كنهه معتاص ، قولنا ... الشريف ... والأشراف ... »[٢] .

وهذا الاشتباه ما جعل الكلام المدَّونَ فى المعجمات ، تحت لفظة الشرف ، يجىء ويذهب[٣] . وأما كتب الأدب فالشرف فيها أكثر قلقاً ، لأن أصحابها لا يلتزمون النصوص الأولى التزام أصحاب المعجمات لها . مثالُ ذلك ما جاء فى "كتاب العرب"[٤] لابن قتيبة و "زهر الآداب"[٥] للحُصرى . فعند ابن قتيبة يرجع الشرف الى أربعة : النسب ، وخُلق الإنسان ، وفعال الآباء ، والكرم (ضد اللؤم) . وأما الحصرى فالشرف على قلمه يدور على النسب الرفيع ، والحسب العالى ، والانتساب إلى النبى أو إلى مضر ، والشجاعة والعلم والأدب وحسن الأخلاق .

وفى رأيى أن قول الحصرى ، ولا سيا قول ابن قتيبة ، على جانب من التردد بل التضارب . وعلة ذلك أنهما أرادا أن يجمعا أشتات المدلولات المعروفة فى عهدهما للفظة الشرف ، من دون أن يميّزا المدلول المقيم من المدلول الطارئ . فتحكّما شيئاً فى الحدّ والشرح والتفصيل ،

---

(٢) "الصاحبى" مصر ١٩١٠ ص ٣٦ ى . أضف إلى هذا أن الشرف من الأضداد : « وقالوا الشرف : الارتفاع ، والشرف : الانحدار » (إلا أن الارتفاع هو المشهور) ، ط ابن قطرب "كتاب الأضداد" ط H. Kofler مجلة *Islamica* المجلد ٥ ص ٢٥٢ رقم ٥١ .

(٣) ط مثلاً "لسان العرب" ج ١١ ص ٧١ ى ى .

(٤) فى "رسائل البلغاء" ط محمد كرد على ، مصر ١٩١٣ ص ٢٧٩ ى ى .

(٥) ط ثانية لزكى مبارك ، مصر ج ١ ص ١٣٥ .

بدلاً من أن يعوّلا على النصوص التى وردت فيها لفظة الشرف ، عهداً بعد عهد ، فيخرجا منها بقول يقارب الواقع على تحوّله .

هذا ولو جاءت لفظة الشرف فى القرآن لتيسّر البحث ، لأن القرآن الحجّة العليا فى مثل هذه المشكلات .

وبعدُ ، فدعنى أحاول تعقُّب مدلولات الشرف ، وردَّها إلى أصل ثابت ، أو إلى فرع من فروعه الباسقة ، بسلوك طريق الاحتمال والإمكان ، مستنداً إلى النصوص الجليّة :

المدلول الحقيقى للفظة الشرف ومشتقّاتها(٦) : العلو والارتفاع . وهو الأصل ، لأنه حِسّىّ ؛ والحسّيّات قبل المعنويات ، كما أن الحقيقة قبل المجاز . وشاهد ذلك المدلولِ الحسى المثلُ العربىُّ القديم : « على الشرف الأقصى فابعدْ » (والشرف الأقصى : المكان العالى(٧)) . وعلى هذا — فيما يسبق إلى الظن — قيل لأعلى جبل ببلاد العرب :

(٦) فى رأى الأب أنستاس مارى الكرملى " نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها " مصر ١٩٣٨ ص ١٣٠ ، أن كلمة الشرف « (ويقال فيها السرف) ... تنظر إلى اللاتينية super أى فوق أو إلى superus أى عال أو قائم فى العلو أو مشرف ... » .

وفى هذا المبحث لا نتعرض لاشتقاق لفظة الشرف ، فإنما كلامنا على تحوُّل مفاداتها .

(٧) الميدانى " أمثال " مصر ١٣٤٢ ج ١ ص ٤٢٩ (قال هذا المثل أكثم بن صيفى وهو من حكماء العرب فى الجاهلية ، ظ الألوسى " بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب " مصر ١٣١٤ ج ١ ص ١٥١) .

شريف[٨] . وفى الشعر الجاهلى ما يعزز هذا[٩] . ثم فى الحديث الصحيح ما حرفه : « ... ولا ينتهب (الرجل) نهبةً ذات شرف ، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها ، وهو مؤمن »[١٠] .

ثم انتقلت كلمة الشرف من حَيِّز الحقيقة إلى أُفُق المجاز ، جرياً على سُنَّة تدرُّج الألفاظ من الحسّ إلى المعنى ، فأفادت رفعة المنزلة . قال الشاعر الجاهلى :

لَحَى الله قوماً أنكحوا بنت خيرهم   بنى صارمٍ يُبْغونها شرفَ المجد[١١] .

وقال حسّان :

دع ذا وعدِّ القريض فى نفر   يرجون مدحى ومدحىَ الشرف[١٢] .

وعليه ما جاء فى الحديث : « اللهم لك الشرف على كل شرف »[١٣] .

---

(٨) الفيروزابادى " القاموس " مصر ١٢٨٩ ج ٣ ص ١٨١ .

(٩) ولقد نظرت ودون قومِىَ منظر   من قَيْسَرونَ فبَلْقَعٍ فَسلابُ
لجبال أيْلةَ فالمحَصَّبُ دوننا   فأولات ذى عَلَجانةٍ فذُهابُ
لحَسِبت أنى قد بدا لى طودُهم   يَكفوا على أشرافهن ضَبابُ
" أشعار الهذليين " ط Wellhausen برلين ١٨٨٤ ص ٦٠ . ز أبو زيد القرشى " جمهرة أشعار العرب " مصر ١٣٠٨ ص ١٣٠ ش ١٠ .

(١٠) البخارى " صحيح " مصر ١٣٤٣ ج ٣ ص ١٩٨ . مسلم " صحيح " مصر ١٣٣٤ ج ١ ص ٥٤ ى . (ورد الحديث أيضاً من غير « ذات شرف » ، ظ مسلم ض ك) . ثم فى المُعجمات ، مثلاً " لسان العرب " ج ١١ ص ٧١ ى ى : « علا شرفاً من الأرض ... وهو المكان المشرف ، ومشارف الأرض : معاليها ، واستشرف الشىء : رفع رأسه ينظر إليه ، وأشرف الشىء وعلى الشىء : علاه ، والشرفة : أعلى الشىء » .

(١١) " أشعار الهذليين " ص ٩ .

(١٢) " شرح ديوان حسان بن ثابت " مصر ١٩٢٩ ص ٢٨٤ .

(١٣) ابن حنبل " مسند " مصر ١٣١٣ ج ٣ ص ١٢٧ ، ٢٣٩ . ومنه فى المعجمات ، مثلاً " أساس البلاغة " مصر ١٩٢٢ ج ١ ص ٤٦٢ ، ٤٨٧ : « فلان قد تسنم ذروة الشرف ، ولفلان شرف وهو علو المنزلة » .

ثم صار الشرف الرفعة فى القوم خاصَّةً ، وذلك من باب إطلاق العامّ على الخاصّ par voie de restriction . وإليه يرجع فصل من كتاب " الألفاظ الكتابية " للهمذانى ، عنوانه " باب فى الشرف والتسامى "(١٤) .

وعلى هذا الوجه دلَّ الشرف على السيادة والسؤدُد فى كتب العرب(١٥) ، ودلّت الأشراف على السادة(١٦) . ويرتدُّ هذا إلى مثل قول رؤساء قريش للرسول : « ... وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا »(١٧) .

ومن المحقَّق أن فى الجاهلية طبقة الأشراف ، كما جاء فى الكتب التى يجرى فيها الكلام على عرب ذلك العهد وما يتصل به من صدر الإسلام . ومن الأمثلة على ذلك ما ورد فى " أشعار الهذليين "(١٨) : « وخرج من فهم ثلاثمائة أو أربعمائة أو زيادة : الأشراف فالأشراف » . وعلى هذا النحو كان لقريش أشرافها(١٩) ، وكان لسائر

---

(١٤) بيروت ١٩١٣ ص ٣٢ . وقد جاء تحت هذا الفصل : « ... فلان فى بيت شرف قبيلة كذا ، وهو فى ذراها وذروتها ، وهو زعيم قومه ، وفتى قومه ، ونظامهم وقوامهم ؛ وقد سادهم وفضلهم ... » .

(١٥) ابن قتيبة " عيون الأخبار " مصر ١٩٢٥ ى ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ . الأبشيهى " المستطرف ... " مصر ١٣٤٨ ج ١ ص ١٨٣ . ظ قول علقمة بن علاثة فى وفود العرب على كسرى : « كلهم ... بالشرف والسودد موصوف » : ابن قتيبة " العقد الفريد " مصر ١٢٩٣ ج ١ ص ١٢٩ . ز البغدادى " خزانة الأدب " مصر ١٣٤٨ ج ٢ ص ٥٧ .

(١٦) " عيون الأخبار " ج ١ ص ٣٣٢ . تجد هاتين اللفظتين مقرونتين فى : الواحدى " أسباب النزول " مصر ١٣١٥ ص ١٦٣ ، ٢٢١ ، ٣٤١ ؛ ابن هشام " السيرة " مصر ١٣٤٦ ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٢ . ز " لسان العرب " ج ١٥ ص ٢٧٤ : « الضخم : السيد الضخم الشريف » .

(١٧) " أسباب النزول " ص ٢٢١ .

(١٨) ص ٥٣ .

(١٩) " العقد الفريد " ج ٢ ص ٥٤ . ز الألوسى ج ١ ص ٣٤٩ .

العرب أشرافها[٢٠] ، ولليهود والنصارى أشرافهم[٢١] . (ويقابل الشريفَ الوضيعُ[٢٢]) .

وأكبر الظن أنّ الرجل لم يكن شريفاً (أى رفيعاً فى قومه) إلا إذا كرم محتده وصفا نسبه[٢٣] . وهذا من قبيل تقييد المعنى . وشاهد ذلك أنّ حسان بن ثابت لما أراد أن يفتخر بنسبه قال :

ألم ترنا أولادَ عمرو بن عامرٍ لنا شرف يعلو على كل مرتقِى
رسا فى قرار الأرض ثم سمتْ له فروع تسامى كلّ نجمٍ مُحَلّق
ملوك وأبناء الملوك كأننا سوارى نجوم طالعاتٍ بمشرق

إلى آخر ما هنالك من تعداد مآثر الآباء[٢٤] . وعلى ذلك قول عمرو بن امرئ القيس الأنصارى :

(٢٠) " أسباب النزول " ص ١٦٣ . ز أيضاً ١٦٣ ، ٢٧٥ ؛ البخارى " صحيح " ج ٤ ص ٧٥ ؛ ابن هشام " السيرة " ج ١ ص ٣٩٣ ؛ " أشعار الهذليين " ص ٣٠ ؛ ابن دريد " اشتقاق " Goettingen ١٨٥٤ ص ٢١٥ ؛ الميدانى ج ٢ ص ٦٧ . (« وكان لبيد جواداً شريفاً فى الجاهلية والإسلام » : " جمهرة أشعار العرب " ص ٣٠ .)

(٢١) " أسباب النزول " ص ٦٧ ، ١٤٥ ، ١٤٧ .

(٢٢) " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ . ز الجاحظ " المحاسن والأضداد " مصر ١٩٢٣ ص ١٠٠ ؛ ابن المقفع " الأدب الصغير " فى " رسائل البلغاء " مصر ١٩١٣ ص ٣٥ .

(ويقابل الشرف الضعة : الجاحظ " الحيوان " ط عبد السلام هارون مصر ١٩٣٨ ج ١ ص ٣٥٩ . ومن ذلك « كان يقال : التواضع والشرف » : " العقد الفريد " ج ١ ص ٣٤٥ ؛ " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٦٦ .

(٢٣) قيل للأحنف : « بمَ سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً ولا ... ؟ » : " المستطرف " ج ١ ص ١٨٣ .

(٢٤) " شرح ديوان حسان ... " ص ٢٨٦ .

إنى لأنمى إذا انتميت إلى غُرٍّ كرام وقومُنا شرف[٢٥].

ويضاف الى هذا أنّ العبد كان مجهول الآباء ، قاعد النسب[٢٦] ، فلا شرف له . قال حسان :

ومن لئيمٍ عبدٍ يحالفكم ليست له دِعوة ولا شرف[٢٧].

وقال درهم بن يزيدَ الأوسى :

لا نرفع العبد فوق سنته ما دام منا ببطنها شرف[٢٨].

فالشرف أفاد كرم النسب . ولهذا كان يقال : « فى بنى فلان الشرف والبيت . وبيت العرب : شرفها (ج : بيوت وبيوتات) . والبيت من بيوتات العرب : الذى يضم شرف القبيلة ... وبيت تميم فى بنى حنظلة أى شرفها ... وفلان بيت قومه أى شريفهم ... »[٢٩] . ومن ذلك قولهم : « وإنّ حسبك لَمَقْعِد — أى يقعدك عن بلوغ الشرف »[٣٠] . وإلى مثل هذه القولة نظر ابن هشام إذ كتب : « محمد أشرف العرب نسباً وحسباً ... »[٣١] .

---

(٢٥) " جمهرة أشعار العرب " ص ١٢٨ .

(٢٦) ظ " العرض عند عرب الجاهلية " باريس ١٩٣٢ ص ١٠٦ ى .

(٢٧) " شرح ديوان ... " ص ٢٨٥ (والدعوة : القرابة ... ، ظ " المصباح المنير " مصر ١٩١٢ ص ٢٩٨ ى) .

(٢٨) " شرح ديوان حسان ... " ص ٢٧٩ . ز " جمهرة أشعار العرب " ص ١٢٢ س ٢ تحت .

(٢٩) " لسان العرب " ج ٢ ص ٣١٧ . ز " الألفاظ الكتابية " ص ك ؛ ابن خلدون " مقدمة " بيروت ١٩٠٠ ص ١٣٤ ؛ " العرض عند عرب الجاهلية " ص ١٠٠ — وق : ابن سلام " طبقات الشعراء " مصر مطبعة السعادة ص ١٩ : « وفيه بيت تميم وشرفها » .

(٣٠) " أساس البلاغة " ج ٢ ص ٢٦٦ . (قال ابن سيده " المخصص " ج ٣ ص ١٥٢ ى : « النزيع : الشريف من القوم الذى نزع إلى عرق » .)

(٣١) " السيرة " ج ١ ص ٦٩ .

ولعلك تستخلص مما تقدم أنّ الشرف بهذا المعنى يرادف الحسب . وإلى هذا ذهب نفر من الأئمة(٣٢) . والذى يبدو لى أنّ الحسب يحتمل معنى الشرف ، وكأنه تاج له . ولكنه يتميّز منه ، إذ يلحق بفَعال الأجداد . على حين أن الشرف موقوف على صفاء النسب . فكأن الشرف بهذا المعنى حال واقفة état statique والحسب حال ناشطة état dynamique(٣٣) .

وبصفاء النسب كانت العرب تُمدح ، وبالأنساب التى فيها دخَل ولؤم كانت تُذم(٣٤) . ثم كانت فى الشرف تتنازع ، وذلك لون من ألوان مفاخراتهم ومنافراتهم ، ويقال له : المشارفة(٣٥) .

تلك المدلولات التى تنتهى إلينا مما يُعزى إلى زمن الجاهلية ومنبثَق الإسلام . فلنتعقّبها بعض التعقّب فى ما جاء بعد ذلك من الزمن .

أما المدلول الأول ، وهو الحسّى ، فالظاهر أنه تنحّى للمدلول الثانى ، وهو المعنوى ، فلم يرد إلا بقدر(٣٦) . والحق أن هذا المدلول الأوّل لا وزن له فى هذا المبحث ، لأن الذى يعنينا من لفظة الشرف إنما هو معناها المجازى .

(٣٢) مثلاً : أبو على القالى " الأمالى " مصر ١٣٢٤ ج ٢ ص ١١٩ .
(٣٣) اطلب تبيين هذا فى " العرض عند عرب الجاهلية " ص ٨٧ .
(٣٤) ذ ، ص ٨٦ («الشرف» عنصر من عناصر العرض) .
(٣٥) " لسان العرب " ج ١١ ص ٧١ . ز قول الجاحظ " مناقب الترك " فى " مجموعة رسائل " مصر ١٣٢٤ ص ١٢ : « ونحن (أى العرب) أصحاب التفاخر والتنافر والتنازع فى الشرف » . ثم ظ بشر فارس " تكملة دائرة المعارف الإسلامية " ليدن ١٩٣٧ مادة " مفاخرة " .
(٣٦) أمثال على وروده : " جمهرة أشعار العرب " ص ١٦٣ ، ١٦٥ : « قصر مشرف وبيت مشرّف » (للفرزدق) . البحترى " ديوان " بيروت ١٩١١ ص ١٧٨ ش ٣ تحت ، ١٩٤ ش ٦ .

وبدلاً من أن نبدأ بمدلول الرفعة ، وهو المعنى المجازىّ الأول ، لنستهل التعقب بالمدلول الثالث ، وهو صفاء النسب ؛ وذلك لأنه المدلول الغالب فى مختتم الجاهلية :

سلك الإسلام الدين فى كل شىء ، ونصب التقوى فى وجه الحميّة الجاهليّة[٣٧] . فأصبح أكرم الناس عند الله أتقاهم[٣٨] لا أعلاهم نسباً ولا أكرمهم محتداً[٣٩] ؛ لأن الناس قد خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا[٤٠] ، لا ليتفاخروا بالنسب . فلتذهب إذن « نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء »[٤١] . وعلى هذا ما أثر عن الرسول فى الحديث الصحيح[٤٢] : « ما ذئبان عاديان أصابا فريقة غنم بأفسد فيها ،

---

(٣٧) ظ " القرآن " سو ٤٨ آ ٢٦ .

(٣٨) ذ ، سو ٤٩ آ ١٣ ۰ ز البخارى " صحيح " ج ٢ ص ١٤٥ ، ج ٣ ص ١٤٤ ؛ ق : اليعقوبى " تاريخ " ليدن ١٨٨٣ ج ٢ ص ١٠٠ : « السعادة فى اثنتين : الطاعة والتقوى » .

(٣٩) ظ شرح الآية السابقة ، مثلاً : البيضاوى " تفسير " مصر ١٩٢٦ ص ٧١٤ ۰ ز البخارى ج ٢ ص ١٤٥ : « قيل : يا رسول الله من أكرم الناس قال : أتقاهم ، فقالوا : ليس عن هذا نسألك ... قال : فعن معادن العرب تسألون ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، إذا فقهوا » . ثم تأمل قول واصل بن عطاء : « نبى الإسلام ... » : " المستطرف " ج ٢ ص ١٦ ۰

(٤٠) " القرآن " ض ك .

(٤١) البيضاوى ض ك . ز حجة الوداع: " البيان والتبيين" مصر ١٣١١ ج ٢ ص ١٦ ؛ " العقد الفريد " ج ٢ س ٨٥ ى . ومن ذلك المثل السائر : « الناس كأسنان المشط » (« أى متساوون فى النسب ... ») : الميدانى " أمثال " ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٤٢) الترمذى " سنن " " كتاب الزهد " باب ٤٣ . الدارمى " سنن " " كتاب الرقاق " باب ٢١ .

من حب المرء المالَ والشرفَ ، لدينه » (يريد أنَّ المرء « يتشرف للمباراة والمفاخرة والمساماة »[٤٣]) .

والمتحصل من هذا أن الإسلام — من حيث مبدأه — لم يكن ليرضى بذلك الشرف الجاهلى ، ولم يكُ ليقيم له وزنا[٤٤] . ولذلك نرى بعض المسلمين يأبون أن يسلّموا بأنَّ الشرف مرجعه إلى صفاء النسب . فهذا البيهقى يقول : « قال بعض الحكماء : لا يكون الشرف بالحسب والنسب ؛ ألا ترى أن أخوين لأبٍ وأمٍّ يكون أحدهما أشرف من الآخر ؟ ولو كان ذلك من قِبل النسب لما كان لأحد منهما على الآخر فضل ، لأن نسبهما واحد ؛ ولكن ذلك من قِبل الأفعال ، لأن الشرف إنما هو فيه لا فى النسب »[٤٥] .

هذا ما جاء به الإسلام . غير أن العرب لم تتحوّل إلاّ قليلاً عن فخرها بالأنساب[٤٦] ، والسبب أن عادات الأمم إذا رسخت كان نسخها

---

(٤٣) " لسان العرب " ج ١١ ص ٧١ س ١٠ ى .

(٤٤) وفى الحديث شاهد هذا : « ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » أبو داود " سنن " " كتاب الصلاة " باب ١ . الترمذى " صحيح " " كتاب القرآن " باب ١٠ . ابن ماجه " سنن " " المقدمة " باب ١٧ . الدارمى " مسند " " المقدمة " باب ٣٢ . ز " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٢٠ .

(٤٥) " المحاسن والمساوى " ط Giessen ١٩٠٠ ى ، ص ١٠٦ . ز ابن قتيبة " كتاب العرب " ص ٢٧٩ ؛ " الأمالى " ج ٢ ص ٨٣ تحت ، ٨٤ فوق ؛ المتنبى " ديوان " بيروت ١٣٠٥ ص ٥٢٢ ش ٣ — ٦ .

(٤٦) افتخر النبى نفسه بنسبه قال : « أنا ابن عبد المطلب » : البخارى ج ٢ ص ١٦٦ . وقال : « ثم جعلهم بيوتا فجعلنى خيرهم بيتا وخيرهم نفساً » : الترمذى " صحيح " " كتاب المناقب " باب ١ . ز " العقد الفريد " ج ٢ ص ٤٦ تحت ؛ ابن هشام " السيرة " ج ١ ص ٦٩ ى (ح) .

مطلباً صعبا : ألا تذكر قصة مصاولة العرب للأعاجم وتساميها على الشعوبية ، محتجةً بأنسابها ، ثم قصة بقائها على المنافرة والمفاخرة[٤٧] ، ومدح بعضها بعضاً بالمآثر ، وذمّ بعضها بعضاً بالمخازى[٤٨] ؟ أضف إلى هذا أنّ طبقة الأشراف لم تزل قائمة[٤٩] وأن الحديث عن الأشراف ظل سائرا[٥٠] .

(٤٧) ظ " العرض عند عرب الجاهلية " ص ١٨٧ ؛ ن " تكملة دائرة المعارف الإسلامية " ليدن ١٩٣٧ ، مادة " مفاخرة " .

(٤٨) من ذلك بقاء هـذا اللون من الذم : « لا أبالك ، لا أمَّ لك » ظ مثلاً : " الأغانى " ج ٧ ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٧٠ ج ١٩ ص ٢٢ ، ٣٨ . " عيون الأخبار " ج ٢ ص ٩ . " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٦٧ . وذلك لأن الشرف من طريق النسب كان له شأنه : ظ " العقد الفريد " ج ١ ص ١١١ س ١١ تحت ، ١١٣ س ٢ تحت ؛ " الأغانى " ط دار الكتب المصرية مصر ١٩٢٧ ج ١ ص ٢١ ؛ اليعقوبى " تاريخ " ج ٢ ص ٣٩٣ ؛ " الأغانى " ج ١١ ص ٨٦ س ٤ ، ج ١٨ ص ٧١ س ١٣ — اطلب ما تحت : « لا أم لك ، لا أبا لك » من الشتيمة فى : الميدانى " أمثال " ج ٢ ص ١٧٣ : « قال أبو الهيثم : لا أم لك عندنا فى مذهب : ليس لك أم حرة ، وهذا هو الشتم الصحيح ... فأما إذا قال : لا أبا لك ، فلم يترك له من الشتيمة شيئاً » . وفى " خزانة الأدب " للبغدادى مصر ١٣٤٨ ج ٢ ص ٥٧ غير هذا : « وقوله : لا أبا لك ، يستعمل كناية عن المدح والذم . ووجه الأول أن يراد نفى نظير الممدوح بنفى أبيه ، ووجه الثانى أن يراد أنه مجهول النسب » . والرأى المتبادر أن هذا التعبير مما ابتُذل على كثرة الاستعمال ، فأضاع قوته ، ومَثله كمَثل قول العامة عندنا لهذا العهد : « يا ابن الإيه ! » .

(٤٩) « الأشراف والطبقة العالية » : " كتاب التاج " المنسوب إلى الجاحظ ط أحمد زكى ، مصر ١٩١٤ ص ٢٠ ز الكتب التى ألفت فى الأشراف لعهد الإسلام : ظ البلاذرى " أنساب الأشراف " ط Goitein القدس ١٩٣٦ ص ١١ ى ى من المقدمة الفرنسية . (وكان لهذه الطبقة حقوق وامتيازات) .

(٥٠) مثلاً : « وكان فلان شريفاً (سيداً) » (الأغانى ج ١١ ص ٩٣ ، ١٤٠) . « وكان فلان من أشراف أهل الكوفة » (" الأغانى " ج ١٣ ص ٤٦ ؛ ز ج ٧ ص ١٨٢ ج ١٩ ص ٦٣ ج ٢٠ ص ١٢٧) . « للملوك والأشراف » ، « الشرائف من النساء » (الجاحظ " رسالة القيان " فى " ثلاث رسائل " ط رفنكل Finkel مصر ١٣٤٤ ص ٦١ ، ٥٧) .

إلا أن هـذه الطبقة طرأ عليها ما لم تعرفه الجاهلية . وذلك أن أهلها كانوا ، أوّل الأمر ، من آباء كرام المنبت (مثل أشراف الجاهلية) ، وفيهم أُلفت كتب كثيرة ؛ ثم أطلق اسم الشريف فى الإسلام ، بحسب قول السيوطىّ ، « على كل من كان من أهل البيت ، سواء [أ] كان حَسَنيًّا أم حسينيًّا أم علويًّا من ذرية محمد بن الحنفية وغيره من أولاد على بن أبى طالب أم جعفريًّا أم عقيليًّا أم عباسـيًّا ... فلما ولى الخلافة الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذريّة الحسن والحسين ، فاستمر ذلك بمصر إلى الآن »[٥١] .

ونعود هنا إلى المدلول المجازىّ الأول ، وهو الرفعة وما عقبها من السؤدد . وهذا المدلول شائع فى تآليف العرب : ففى "كليـلة ودمنة"[٥٢] : « وظن أن ذلك فخر له وشرف ورفعة » . ومنه : مقابلة الدنىء بالشريف ، فى الكتاب ذاته[٥٣] . ومنه أيضاً قول الأحوص ۵ ٢٠٥ :

ما من مصيبةِ نكبةٍ أُرمى بها   إلاّ تشرّفنى وترفع شانى[٥٤] .

(٥١) "كتاب العجالة الزرنبية فى السلالة الزينبية" ظ "فهرس الـكتب العربية الموجودة بالدار (دار الـكتب المصرية)" ج ٥ ص ٢٦٤ (مجاميع) : خ رقم ١٩٤ . لقصة آل البيت ، وانتشار الأشراف ، والـكتب المؤلفة فيهم ، ظ حسن النجار "الأشراف" مصر ١٩٣٨ . ولمسئلة نقابة الأشراف وصحتها فى الإسلام ولباس الخضرة ، ظ محمد إسعاف النشاشيبى "الإسلام الصحيح" القدس ١٣٥٤ ص ٢٩٩ ى ى . ولأنساب الأشراف ، ظ مثلاً : محمد بن أحمد ... النجفى "بحر الأنساب المسمّى بالمشجّر الكشاف لأصول السادة والأشراف..." ط حسين محمد الرفاعى ، مصر ١٣٥٦ .

(٥٢) بيروت ١٨٩٩ ص ٢٦٥ .

(٥٣) ص ٣٤٧ .

(٥٤) "العقد الفريد" ج ١ ص ١٩٣ .

وفى رواية أُخرى : « ... إلّا تعظّمنى وترفع شانى »(٥٥) . وهذا يدل على أن التشريف يفيد التعظيم(٥٦) . وعلى هذا الوجه فسّرْ قول بعضهم للمنصور : « ولا أقوم من مقام شرّفنى به أمير المؤمنين ورفعنى »(٥٧) ، ثم أدركْ ما تحت هذا التعبير : « دار التشريفات الشريفة » و « الخدمة الشريفة الناصرية » ببغداد لعهد الناصر لدين الله(٥٨) .

فالشرف إذن يفيد الرفعة والسؤدد والعظمة ، ويجاور الفخر على ما جاء قبلُ فى ″ كليلة ودمنة ″ وما ورد فى ″ تاريخ ″ اليعقوبى عند الكلام على مساجلات الشعراء فى أسواق الجاهليّة(٥٩) . ويجاور الفضلَ أيضاً ، قال محمود الوراق :

من شرف الفقر ومن فضله   على الغنى إن صح منك النظر ...(٦٠)

ولذلك جعل ابن قتيبة بعض الكلام على الشرف فى باب ″ الكمال والتناهى فى السودد ″ من ″ عيون الأخبار ″(٦١) . ومما ساقه أنّ معاوية كتب إلى زياد : « انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فولّه » ، فعرض زياد

(٥٥) ″ الأغانى ″ ج ٤ ص ٤٤ .
(٥٦) يفسر أبو زيد القرشى ″ جمهرة أشعار العرب ″ ص ١٣٧ لفظة الملاة بكسب الشرف ، ولفظة الخطر بالشرف .
(٥٧) ″ المستطرف ″ ج ١ ص ١٨٤ .
(٥٨) ابن الساعى الخازن ٥ ٦٧٤ ″ الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير ″ ط مصطفى جواد وأنستاس مارى الكرملى ، بغداد ١٩٣٤ ج ٩ ص ٢٧٨ ، ٢٨١ .
(٥٩) ج ١ ص ٣٠٤ : « وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعر (الشاعر) ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم » .
(٦٠) ″ عيون الأخبار ″ ج ١ ص ٢٤٩ . ز الجاحظ ″ الحيوان ″ ج ١ ص ٣٦١ ؛ ″ العقد الفريد ″ ج ١ ص ١١٣ س ٢ تحت .
(٦١) ج ١ ص ٢٢٧ .

الأحنف بن قيس وسِنان بن سلمة ، فوجّه معاوية سناناً لحقده على الأحنف ، فكتب إليه زياد : « إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسودد ما لا تنفعه الولاية ولا يضرّه العزل » . وثمة باب آخر فى "عيون الأخبار" عنوانه : "الشرف والسودد بالمال . . ."(٦٢) .

وبعد ، فهذه فقرة معترِضة ، يجرى فيها الحديث على اقتران لفظة الشرف ومشتقاتها بغير العاقل ، فى كتب العرب . مثال ذلك باب من "إحياء علوم الدين" للغزالى ، عنوانه : "فى العقل وشرفه ..." ، بعد كلام على « شرف العلم »(٦٣) ؛ وقول الماوردى : « فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه »(٦٤) . ومثال ذلك أيضاً قول الجاحظ : « فأىّ صناعة على وجه الأرض أشرف منها (يعنى صناعة الغناء) »(٦٥) ؛ وقول ابن الأثير : « إن علم الحديث والآثار من أشرف العلوم الإسلامية قدراً »(٦٦) ؛ ثم ما جاء فى "لسان العرب" عن أحدهم : « أشرف آية فى القرآن آية الكرسى »(٦٧) ؛ وما ذكره الميدانى : « الفالوذ ... أشرف طعام وقع إليهم »(٦٨) . ومثال ذلك أخيراً ما سطّره الجاحظ : « ولو كانت الكتابة

---

(٦٢) ج ١ ص ٢٣٩ . ثم : « قيل لمعاوية : أخبرنا عنكم وعن بنى هاشم ، قال : بنو هاشم أشرف واحدا ونحن أشرف عدداً ... » ("العقد الفريد" ج ٢ ص ٤٦) . ز ما يأتى بعد من الكلام على الشرف والسؤدد .

(٦٣) مصر ١٣٤٨ ج ١ ص ٧٣ .

(٦٤) "أدب الدنيا والدين" مصر ١٣٣٢ ص ٣ .

(٦٥) "رسالة القيان" ص ٧٥ ؛ ز الجاحظ "فخر السودان ..." فى "مجموعة رسائل" مصر ١٣٢٤ ص ٨٠ س ٨ .

(٦٦) "النهاية فى غريب الحديث والأثر" مصر ١٣١١ ج ١ ص ٢ .

(٦٧) ج ١١ ص ٧١ س ٦ .

(٦٨) "أمثال" ج ٢ ص ٧٦ ؛ ز ابن جنى "الخصائص" مصر ١٩١٣ ص ٢٢٣ .

شريفة والخط فضيلة ، كان أحق الخلق بهما رسول الله »[٦٩] ؛ وما دوّنه ابن خلدون : « اعلم أن فن التاريخ ... شريف الغاية »[٧٠] والمبرد[٧١] ، وابن جِنى[٧٢] .

وصفة الشريف وما إليها ، فيما تقدم ، تقارِب صفة الكريم . شاهد ذلك قول الجاحظ : « فى هذه الصناعة (يعنى صناعة الغناء) الكريمة الشريفة »[٧٣] ؛ وعلى هذا قول ابن جنى : « هذه اللغة الشريفة الكريمة ... »[٧٤] .

وعند الفراغ من هذه الفقرة المعترضة ، نعود إلى الكلام على المدلولات المنطوية فى لفظة الشرف فى الإسلام ؛ فإذا هى ، على حسب ما ولّى من التبيين ، رفعة المنزلة والسؤدد والعظمة ، إلى ما يقاربها أو يدخل تحتها ، نحو الفخر والمجد والفضل[٧٥] .

---

(٦٩) " ذمّ أخلاق الكتاب " فى " ثلاث رسائل " مصر ١٣٤٤ ص ٤١ .

(٧٠) " مقدمة " بيروت ١٩٠٠ ص ٩ .

(٧١) " الكامل " Leipzig ١٨٦٤ ى ص ٢ .

(٧٢) " الخصائص " ص ٢٢٥ . أضف إلى كل ما تقدم القول السائر : « القرآن الشريف ، والحديث الشريف ، والأزهر الشريف » .

(٧٣) " رسالة القيان " ص ٧٤ · ز " البيان والتبيين " مصر ١٣١١ ج ٢ ص ٨١ س ١٩ ى .

(٧٤) " الخصائص " ص ٤٥ · ز قول الخرتبرتى : « ... إلى أن شرّف الله الفتوة وكرمها » (" تحفة الوصايا " خ آيا صوفيا رقم ٢٠٤٩ ص ١٠٨ ، ظ Taeschner, *Futuwwa - Studien* مجلة *Islamica* المجلد ٥ ص ٣١٠) .
وكذلك قولنا : « القرآن الكريم » . (وفى التشريف هنا معنى التعظيم أيضاً . ز : « ... شرّف العربية وعظمها » : الثعالبى " فقه اللغة " أول المقدمة .)

(٧٥) قد تقدمت الشواهد على الفخر والفضل . أما المجد ففى " عيون الأخبار " ج ١ ص ٢٤١ : « لا تسأل الناس ما مجدى وما شرفى » . ز " خزانة الأدب " ج ٢ ص ٥٧ ؛ " المصباح المنير " ص ٤٤٩ ؛ " القاموس المحيط " مادة م ج د .

وكأنى بك تقول : هأنت ذا أحصيت مفادات الشرف . فالذى فى الحقيقة أن الشرف من الألفاظ التى قُدِّر لها أن تسير فى طريق لا يُرى آخره . وأكثر الظن أنّ الشرف غلب عليه الجانب المعنوى من مدلوله الأول أىّ غلبةٍ حتى إنه أمسى كلمةً رَمْزاً mot symbole ، أعنى كلمةً متى تقع فى مسمعك تنشر فى خاطرك مجموعة من القيَم المجرّدة . ودليل هذا أن لفظة الشرف اتفق لها أن تنافس مفردات نحو : المروءة والأدب والكرم . قال ابن قتيبة : « فهذا وما أشبهه مزح الأشراف وذوى المروءات »[٧٦] ؛ وفى "كتاب التاج" المنسوب إلى الجاحظ : « ويخرج بها عن حدّ أهل الأدب والمروءة والشرف »[٧٧] ، ثم فى "كتاب العرب" أنّ الشرف ينظر إلى الكرم الذى هو ضد اللؤم[٧٨] . ومن المعلوم أن المروءة والأدب والكرم ، بمعانيها المطلقة ، تتضمن قِيماً أخلاقية كثيرة .

بقى أن نتبيّن ما يفيد هذا الشرف الذى يقع موقع كلمةٍ رَمْز . فدونك بعض النصوص :

ا — « فقد هُجُوا (يعنى قبيلة من العرب) بذلك وشرفُهم وافر »[٧٩] .

---

(٧٦) "أدب الكاتب" مصر ١٣٤٦ ص ١٣ . ز قول الباهلى "الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق" مصر ١٢٩٨ ص ١٣٦ : « وأسباب المروءة إنما هى مرتبطة بشرف النفس » .

(٧٧) ص ٧٧ . ز "كليلة ودمنة" ص ٢٦٣ : « لا يطمعن ... سيء الآداب فى الشرف ... » .

(٧٨) ص ٢٨١ س ٢٣ ى ى . ومن ذلك أن الشريف أفاد الكريم إذا وقع صفةً لغير العاقل .

(٧٩) "البيان والتبيين" ج ٢ ص ١٧٠ س ٨ ى .

ب — « ولم أكتب هذا الشعر ليكون شاهداً على مقدار حظهم في الشرف »[٨٠] .

حـ — « ... وقال : هلك سيّدنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم ، فلا شرف بعدها »[٨١] .

وإن سألتني : ما أفهم من الشرف الوارد في هذه النصوص الثلاثة ، قلت : ما تفهم أنت من لفظة الشرف لهذا العهد في مصر خاصةً (وضدها العار إذن) . وإذا اعترضت عليّ بقولك : إن لفظة الشرف في تلك النصوص قد وردت قائمة برأسها ، فما من شيء قبلها ولا بعدها يعزّز ما تذهب إليه ، فضلاً عن أن السياق لا يمنع الذهن من الانصراف إلى مقصود آخر ؛ جعلتُ ردي على الاعتراض مصراعَ بيت لمحمد بن حازم الباهلي من شعراء الدولة العباسية : « ما الفقر عار ولا الغنى شرف »[٨٢] . فالمقابلة جليَّة : ههنا الشرف ، وهنالك العار .

ولا شك أنّ ما تحت هذا الشرف من المعنى منحدر من المدلول المجازيّ للشرف الجاهلي ، أعني الرفعة وعلوّ المنزلة ؛ وحجتي بيت المتنبي مشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم[٨٣]

---

(٨٠) ذ ض ك س ١٥ .

(٨١) « الأغاني » ج ١٦ س ٣٠ .

(٨٢) « عيون الأخبار » ج ١ س ٢٤٦ .

(٨٣) « ديوان » بيروت ١٣٠٥ س ٦٣٠ . ز بيت له آخر س ٢٣٨ ، فيه يحتمل الشرف الرفعة :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم .

وأقرب الظن أنك توافقنى على أن الشرف فى هذا البيت يقابل العار عند المتنبى ؛ فانظر كيف وصفه بالرفعة .

وهنا مطلب جديد : كيف صارت الرفعة إلى اجتناب العار ؟ ولعلَّك تقول : من الأمر الطبيعى أن تنتهى الرفعة إلى طلب التنزّه عن المخازى والمعايب . على أن مثل هذا القول لا ينهض نهضة الدليل المفحم ؛ ذلك بأنه يرجع إلى رأى قَبْلى (٨٤) ، والآراء القبلية لا يسلّم بها المنهج الوَضعى . والوجه ، فى هذا الموضع ، أن الرفعة قد يتفق لها على اختلاف الأمم وتباعد الأزمنة أن ترضى بالأمور العائبة ، وربما اقتضتها . وهذه مسئلة لو عرضتُ لها لصرفتْ هذا المبحث عن غرضه ، فحسبى الإشارة إليها .
ولنأخذ الآن فى ذلك المطلب الجديد :

قد رأيتَ أن الرفعة فى الجاهلية أفادت علوّ المنزلة والسيادة من طريق صفاء النسب ، وذلك من باب تقييد المعنى . ثم جاء الإسلام فنصب الحرب للفخر بالآباء ، فحرر الشرف — بهذا — مما قُيّد به ، من جهة المبدإ على الأقل . فلما صار الشرف طليقاً مع بقائه على مدلوله الأول وهو الرفعة ، انحرف إلى ضم الأخلاق الكريمة . أما قرأت فيما تقدم كلمة البيهق ، ومجملها : أن الشرف فى الأفعال لا فى النسب ؟ فخذ الآن قول ابن قتيبة : « فذو الهمة تسمو به نفسه إلى معالى الأمور ... ويحوز الشرف لنفسه ولذريّته ... إنّ أولى الأمور بالمرء خصاله

(٨٤) قبلى : نسبة إلى قبل (وبعدى : نسبة إلى بعد) ظ ابن رشد "تهافت التهافت" ط Bouyges بيروت ١٩٣٠ ص ٢١ س ٧ ، ص ٧٥ س ٦ ، ص ٧٦ س ٩ . وأما على ظنى فالرأى القبلى يفيد المعنى القائم فى الذهن قبل شهادة التجربة prénotion *(apriori)* .

فى نفسه ، فإن كان شريفاً فى نفسه وآباؤه لئام لم يضره ذلك ، وكان الشرف أولى به ، وإن كان لئيماً فى نفسه وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك »[٨٥] .

ومن هنا يتبين أن الشرف فى النفس ، وأنه يلمّ — من قبيل التضمّن — تفاريق الأخلاق الكريمة : أمّا أنه فى النفس فيؤيد ذلك فصل فى "العقد الفريد" عنوانه : "بعد الهمة وشرف النفس"[٨٦] . وأما أنه يحتمل الأخلاق الكريمة فإليك قولاً للحصرى يزيد إلى شرف الجاهلية شرف الإسلام : « قد جمع (فلان) شرف الأخلاق إلى كرم الأنساب »[٨٧] . وعلى ذلك بيت للبحترى :

تكفّنا عنهمُ نعمى فتًى شرفت أخلاقه وطما بالعُرف واديه[٨٨] .

وعلى ذلك أيضاً قول الماوردى : « وبعيد أن تسلم إلا لمن كان استكمل شرف الأخلاق طبعا »[٨٩] .

---

(٨٥) "كتاب العرب" س ٢٨١ ؛ ثم ص ٢٧٩ : « وعدل القول فى الشرف أن الناس لأب وأم ، خلقوا من تراب وأعيدوا إلى التراب ... فهذا نسبهم الأعلى ... وأما النسب الأدنى الذى يقع فيه التفاضل بين الناس فى حكم الدنيا ... فإن الله خلق آدم من قبضة جميع الأرض ، وفى الأرض السهل والحزن والأحمر والأسود ... (وفى الناس) الشجاع والجبان ، والبخيل والجواد ... » . وهنا يذكر ابن قتيبة تفاوت الناس فى شهواتهم وإراداتهم وغرائزهم ، ثم يزيد س ٢٨١ : « وهذا وأشباهه من لئيم الغرائز كثير فى الأمم ، وهذه الطبائع هى أسباب الشرف وأسباب الخمول ، فذو الهمة الخ . » .

(٨٦) ج ١ س ١٩١ . ز "المستطرف" ج ١ س ١٨٣ ؛ الباهلى ك ك س ١٣٦ س ١٩ ى . وفى "أدب الدنيا والدين" س ٣٢٢ ى : « وأما شرف النفس فإنه به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب » . ثم يقال : « همة شريفة » ("العقد الفريد" ج ١ س ١٩١) .

(٨٧) "زهر الآداب" ج ١ س ١٣٦ .

(٨٨) "ديوان" بيروت ١٩١١ س ١٧٥ .

(٨٩) "أدب الدنيا والدين" س ٣٢١ .

وإن سألتنى : متى خرج الشرف بهذه المعنويّة التامة ؟ قلت : لا أدرى ؛ ولكنها نزعات إسلامية تساوقت فأجرت الشرف ذلك المجرى . والتقريب فى القول أن الشرف ، بذلك المعنى الخُلُقى ، قديم ؛ ولعلّه يصعد إلى الجاهلية[٩٠] ، فلم يُشرق فيها بسبب غلبة الشرف القائم بصفاء النسب ، فضلاً عن أن لفظة العِرض كانت يومئذ تقوم مقام مبدإ أخلاقى ضخم الشأن[٩١] . وكيفما كانت الحال فهذا نص من قلم الجاحظ : « وهم (يعنى الزنج) شجعاء ، أشداء الأبدان ، أسخياء ، وهذه هى خصال الشرف مع حسن الخُلُق وقلة الأذى ؛ لا ترى أحدَهم أبداً إلاّ طيب النفس ، ضحوك السِن ، حسن الظن ، وهذا هو الشرف » [٩٢] .

وكأنّ هذا الشرف الطارىء قوِى على مدار الزمن واستولى على الأذهان ، بما تضمّن من الأخلاق الكريمة حتى إنه أصبح لفظاً جامعاً لها . فانتهى به الأمر إلى أن بلغ فى عهدنا هذا مرتبة عالية واستوى

---

(٩٠) أن يكون الرجل كريماً عزيزاً بفعاله لا بأفعال آبائه (أى بحسبه) ، ذلك أمر جرى فى الجاهلية ، ظ " المفضليات " ط Lyall بيروت ١٩٣٠ ص ١٠٧ ؛ " العقد الفريد " ج ١ ص ٢٢٠ تحت ٢٢١ فوق ؛ ثم " لسان العرب " ج ٣ ص ٧٤ س ١٨ : « الخارجى (وهو) الذى يخرج ويشرف (الشرف أى الرفعة) من غير أن يكون له قديم (= عصامىّ) » .

(٩١) ظ بشر فارس " تكملة دائرة المعارف الإسلامية " ليدن ١٩٣٦ مادة " عرض " . (ترى بعد كيف صارت لفظة العرض مقصورة على عفة المرأة فى سورية وشرق الأردن ومصر .)

(٩٢) " فخر السودان ... " فى " مجموعة رسائل " ص ٦٤ .

بين الكَلِمِ الروامز . وكلنا يعرف بالبصيرة والسليقة ما تحت كلمة الشرف السائرة فى مصر ثم فى نجد وشرقىّ الأردن وسورية [٩٣] .

ومن ذلك الشرف هذا اللون من الحلف : « وشرفى ، وشرفك » ؛ ومن ذلك قولنا فى مصر : « ردّ شرف » للتعبير عما يقال له فى لغة أهل القانون : « تعويض الضرر الأدبى » dommages et intérêts moraux[٩٤] .

ولهذا الشرف عندنا معنى آخر خاص ، ينبسط على ما يتصل بعفّة المرأة . وهو ينافس إذن لفظة العِرض ، بمعناها المستحدث فى سورية وشرقىّ الأردن حتى فى مصر . ونتيجة هذا التنافس أنك تقرأ فى صحفنا الخبر الواحد هكذا : فى "المقطم"[٩٥] : يقتل فلان أخته طعناً بالسكين « دفاعاً عن الشرف » وفى "الأهرام"[٩٦] : « فى سبيل العرض » يحضر فلان من السويس سيراً على الأقدام ، ويقتل شقيقته لسوء سلوكها .

و إلى جانب المعنى الأول العام للشرف عندنا ، وهو السائد ، ثم المعنى الثانى الخاص ، وهو فى طور الاستواء ، ترى مدلولات للشرف تنجذب إلى المدلولات القديمة ؛ منها : « التشريف الملكى ، التشريفات ، التشريفاتى » [٩٧] ، والمقصود : التعظيم والتكريم . ومنهـــا : « الأشراف »

---

(٩٣) ظ "العرض عند عرب الجاهلية" ص ٣٣ . وأما فى الجزائر، فيقال : « نيف ،حُرمة » ظ R. Maunier, *Introduction à la Sociologie*, Paris 1929 ص ٢١ .

(٩٤) يشّر لى النص القانونى الدكتور حامد زكى ، أستاذ القانون المدنى فى كلية الحقوق لجامعة فؤاد الأول .

(٩٥) ١٩٣٨/٩/١٧ ص ٨ . ز ذ ١٩٣٧/٩/٣٠ ؛ "البلاغ" ١٩٣٧/٤/٢٣

(٩٦) ١٩٣٨/٩/١٨ ص ١١ .

(٩٧) ولفظة « التشريفاتى » (وصيغتها تركية) تطلق على القائم بنظام التشريفات maître des cérémonies ؛ والتشريفات خاصة بآداب الدخول على السلطان فى الموعد

وقد قُصر مؤدى هذه الكلمة ، فى مصر على الأقل ، على الجماعة المعروفة ، ولها نقابتها[٩٨] .

هذا وقد هجم على الشرف ، بمعناه العامّ عندنا ، مدلولات لا عهد للغتنا بها ، من جانب اللفظة الإفرنجية honneur, honour . من ذلك : « شرف المهنة » honneur professionnel ، و « وصائف الشرف » (فى حفلات الزفاف عند المسيحيين)[٩٩] demoiselles d'honneur, maids of honour ، و « شهادة كذا بدرجة شرف » avec mention honorable, such and such a degree with honours ، و « رئيس شرف » و « لجنة شرف » (honorary president...) président, comité d'honneur . وقد يتلطّف أهل سورية فيقولون : « أدب الرجل مأدبة على شرف فلان » en l'honneur d'un tel, in honour of so and so والمقصود : إكراماً له .

المضروب للمثول بين يديه cérémonial ، ظ " ترجمان اللغات " القسطنطينية ١٢٨٨ ج ١ ص ٢١٦ ى . ومن ذلك قول الترك : « تشريفاتى" ديوان همايون (= الديوان الأكبر) ، تشريفاتى" صدارت عظمى (= الصدر الأعظم) » ، ظ : ش . سامى " قاموس تركى " القسطنطينية ١٣١٧ . وتستعمل اليوم فى مصر لفظة « الأمين » chambellan إلى جانب لفظة «التشريفاتى» و «سكرتير التشريفات» فى القصر الملكى .

(٩٨) للأشراف فى الحجاز مثلاً ، ظ أمين الريحانى " ملوك العرب " ١٩٢٩ ج ١ ص ٢٢ ؛ حافظ وهبه " جزيرة العرب فى القرن العشرين " مصر ١٩٣٥ ص ١٦٢ ى ى ، ١٦٦ ى ى . وللأشراف المعاصرين فى البلدان الإسلامية ، ظ حسين محمد الرفاعى " كتاب الوصاف المبين فى طبقات ومناقب آل البيت الأشراف المعاصرين " مصر (١٩٣٧) . وأما طبقة الأشراف بمعنى الطبقة العالية فقد حل محلها «الخاصة والطبقة الراقية» لأن المفروض أن نظامنا الاجتماعى قوامه المساواة ؛ فلا شريف ولا وضيع ولا نسب ضخم ولا نسب ضئيل . (اذكر أن العرب لهذا العهد يستعملون كلمة « الشيخ » للرؤساء والأعيان .)

(٩٩) مجلة " المصور " مصر ١٩٣٨ العدد ٧١٧ ص ١٦ تحت . و « وصيفات الشرف » (لجلالة الملكة) dames d'honneur (de la reine) : " الأهرام " ١٩٣٩/٣/١ ص ٠١

وهنالك تعابير داخلة في أدب المخاطبة ، لها ما يسوّغها في فصيح كلام العرب ؛ إلا أنها إفرنجية حرفاً لحرف . منها : « أتشرف (أو : لي الشرف) بأن كذا وكذا » j'ai l'honneur de..., I have the honour to... ، ومن المأثور عن الفصيح : « شرّفه الله تشريفا ، وتشرف بكذا أي عدّه شريفا »[١٠٠] .

ومما يذكر على سبيل التنبيه أننا نقول : « الدكتوراه الفخرية »[١٠١] ، ونريد بالفخرية التعبير اللاتيني *honoris causa* (أي : لأجل الشرف) . فتأمل كيف عبرنا عن تلك اللفظة هنالك بالشرف وهنا بالفخر . وعندي أنه لا غرابة في ذلك ، وقد تقدم في هذا المبحث أن الفخر جاء في أساليب البلغاء مجاوراً للشرف . فالذي ارتجل تعبير : « الدكتوراه الفخرية » أراد الشرف وقلمه منصرف إلى لفظة تجاورها في اللغة[١٠٢] .

تلك قصة لفظة الشرف . ولا أقول تاريخها ، إذ لم أستوعب كل شيء : ألم ترني أهملت ذكر ورود هذه اللفظة ومشتقاتها أسماء أعلام ؟ أضف إلى هذا أني لم أتعقبها خطوة خطوة ، ولم أطلبها في آثار القوم على استقصاء . ولو فعلت لانتشر هذا المبحث في سفر كامل .

---

(١٠٠) " لسان العرب " ج ١١ ص ٧١ س ١١ . أما قولنا : « اتفضل شرّفنا » فقد ابتُذل فيه معنى التشريف لكثرة الاستعمال ، فخفّ وقعه (usure sémantique) بحيث دل على الزيارة فقط .

(١٠١) مجلة " الرسالة " مصر ١٩٣٩ السنة ٧ العدد ٢٩٥ ص ٤٢٣ . " الأهرام " ١٩٣٩/٢/٢٤ ص ٨ . " المقطم " ١٩٣٩/٢/٢٥ ص ٦ .

(١٠٢) فائدة — لا يزال المدلول الحسّيّ الأول للفظة الشرف ، وهو الارتفاع ، مستعملا لهذا العهد في مثل قولنا : « شُرفة » لما يبرز من المنازل لأجل الإطلال balcon (مثلاً " الأهرام " ١٩٣٩/٣/٣ ص ٦) . والشرفة ، في صحيح العربية : « ما يوضع على أعالي القصور والمدن » ظ " مجلة مجمع اللغة العربية الملكي " مصر ١٩٣٥ ج ٢ ص ٨٧ ، ز قبل (ح) ٣٦ — ومما نستعمل من باب المجاز : « فلان يشرف على عمل كذا » . ز في القديم : " حماسة أبي تمام " مصر ١٣٤٦ ج ٢ ص ٦ ، ٢٦ .

بقى أن هذا المبحث لا تتم فائدته إلا إذا تأملته من جانبين : الأول لغوى ، وهو يلحق بفن النقل ، والمراد انتقال معنى اللفظ من موضع إلى موضع ؛ والثانى اجتماعى ، وهو يدخل فى علم الواقعات الُخلقية .

أما الجانب الأول ، فجملة القول أنك رأيت كيف خرجت لفظة الشرف فى الجاهلية من الحسّ إلى المعنى ، فأفادت ، أصلاً ، رفعة المنزلة على العموم ، ثم السيادة من قبيل إطلاق العام على الخاص ؛ ورأيت بعد هذا أنها استلزمت صفاء النسب من باب التقييد ، فمالت عن معناها المجازى الأصلى ، وهو رفعة المنزلة ، لتساير لفظة الحَسَب . حتى إذا طلع الإسلام رَجَعها إلى الرفعة ، لنسخه الفخر بالآباء . ولكن طائفة من المسلمين عادوا إلى الشرف بذلك المعنى المقيد ، ليدلوا به على الانتساب إلى الرسول ، فضلا عن أن الأشراف ، أى أصحاب الأنساب الراسخة فى العشائر والقبائل ، بقوا بالفعل en acte مدةً على ما كانوا عليه فى الجاهلية . وما زال المعنى الأصلى والمعنى المقيد فى مغالبة ، حتى فاز الأول بفضل السنّة الإسلامية وبنصرة طائفة من الكتاب المسلمين . فلم يبطئ أن يجذب إلى مضمونه مجموعة من القيم الأخلاقية ، حتى صار كلمةً رَمْزًا ، لها قوتها ولها جاهها prestige . فحل بهذا محل لفظة العِرض الجاهلية . والذى أعانه على ذلك أن العرض كان خاصًا بالنظام الاجتماعى قبل الإسلام ، فأصبح معه كأنه شىء قائم لغير أوانه ، على حسب ما بينتُ فى مبحث آخر[(١٠٣)] . وعلى هذا الوجه انتهى الشرف إلى أيامنا هذه ، وقد أضاف إلى قيمه قيما أُخر تطرّقت إليه من ناحية الغرب .

وأما الجانب الثانى ، وهو الداخل فى علم الواقعات الخلقية ، فحديثه مَسَاقَة إلى ماوراء هذا المبحث من مسائل فلسفية ، نخرج بها عن المقصود الأوّل .

(١٠٣) « تكملة دائرة المعارف الإسلامية » مادة « عرض » .

٧

بعض الاصطلاحات *

١ — فى اصطلاحات الموسيقى

المساوقة و المراسلة

إن عند الإفرنج اصطلاحاً موسيقيًّا هو لفظة accompagnement فى الفرنسية و accompaniment فى الإنجليزية و Begleitung فى الألمانية. وهذه اللفظة تفيد متابعة الغناء بالآلة أو بالصوت، على غير تفريق. ومكانتها فى المواضَعات الموسيقية فى المحل الأول عند القوم أو عندنا. واللغة العربية لهذا العهد يُعوزها ما يُعبّر عن هذه اللفظة.

والتحقيق أن للعرب لفظين فى هذا الموطن، لا لفظاً واحداً؛ أحدهما يدل على متابعة الغناء بالآلة، والآخر على متابعته بالصوت.

أما اللفظ الأول، فهو: المساوقة، وهى متابعة الغناء بالآلة:

قال ابن خلدون (بعـد ما تكلم على تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسبٍ منتظمة معروفة) : « ... وقد يساوَق

---

* نشر هذا البحث مختصراً فى "مجلة مجمع اللغة العربية الملكى" مصر ١٩٣٥ ج ١، السنة ١٩٣٤، ص ٣٩٤ — ٣٩٩. (وقد أضيف إليه هنا بعض الحواشى.)

ذلك التلحين فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات ، إما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تُتخذ لذلك ... » (وهنـــا ذكر الآلات ووصفها)[١] .

وبعـد ، فدعنى أصرح بأنى لما عثرت على هذا النصّ ، عمدت إلى كتب اللغة[٢] ، أستفسرها المساوقة ؛ فلم أصبها بالمعنى الذى أورده به ابن خلدون .

ولعلّ المساوقة فى الموسيقى مأخوذة من اصطلاح الفقهاء ، أو لعلّ الأمر بضدّ ذلك . قال صاحب "المصبـاح المنير"[٣] : « والفقهاء يقولون تساوقت الخطبتان ، ويريدون المقارنة والمعيّة ، وهو ما إذا وقعتا معاً ولم تسبق إحداهما الأخرى . ولم أجده فى كتب اللغة بهذا المعنى » .

وكيفما كانت الحـــال فأى شىء يحظر إيراد لفظ المساوقة بمعنى accompagnement ، من قبيل المجاز ؟ فالمساوقة ، فى اللغة : المتابعة ، وتساوقت الإبل : تتابعت ، كأنّ بعضها يسوق بعضا[٤] .

وأما اللفظ الآخر ، فهو : المراسلة ، وهى : متابعة الغناء بالصوت . قال صاحب "المصباح المنير"[٥] : « تراسل الناس فى الغناء إذا اجتمعوا

---

(١) "مقدمة" مستهلّ فصل "فى صناعة الغناء" (بيروت ١٩٠٠ ص ٤٢٣) .
(٢) وفى جلتها "المخصص" لابن سيده .
(٣) مصر ١٩١٢ ص ٤٥٢ ى — وأما الفلاسفة ، فالمساوقة عندهم « تستعمل فيما يعمّ الاتحاد فى المفهوم » : أبو البقاء "الكليات" مصر ١٢٨١ ص ٣٤٥ س ١٠ . ز التهانوى "كشاف اصطلاحات الفنون" كلكتة ١٨٦٢ ج ١ ص ٦٨٤ .
(٤) "تاج العروس" ج ٦ ص ٣٨٩ فوق . "أساس البلاغـة" مصر ١٩٢٣ ج ١ ص ٤٦٨ .
(٥) ص ٣٤٧ ى .

عليه ، يبتدئ هذا ويمدُّ صوته فيضيق عن زمن الإيقاع فيسكت ويأخذ غيره فى مدِّ الصوت ويرجع الأول إلى النغم ، وهكذا حتى ينتهى . قال ابن الأعرابى : والعرب تسمى المراسل فى الغناء والعمل : المتالى ؛ يقال راسله فى عمله : إذا تابعه فيه ، فهو رسيل ؛ ولا تراسُلَ فى الأذان ، أى لا متابعة فيه ، والمعنى لا اجتماع فيه » . ومن هذا قولُ " تاج العروس "(٦) فيما استدرك : « وهو رسيله فى الغناء ونحوه ، وراسله الغناء : باراه فى إرساله ... » .

ولا يسبقنَّ إلى الظن أن المراسلة فى الغناء من الترسُّل فى القراءة أو الترسيل فيها(٧) ، فإنما هى من المراسلة بمعناها المشهور فى قولهم : « تراسل القوم أى أرسل بعضهم إلى بعض رسولاً أو رسالة »(٨) .

هذا ومما قدَّمنا أنَّ ابن الأعرابى يقول : « والعرب تسمى المراسل فى الغناء والعمل : المتالى » . والظاهر أن المتالى أخص من المراسل ؛ وشاهد هذا : « والمتالى الذى يراسل المغنى بصوت رفيع ؛ قال الأخطل :

صلت الجبين كأنَّ رجع صهيله   زجر المحاول أو غناء متالى »(٩) .

فالمتالاة — إذن — مراسلة الغناء « بصوت رفيع » ، وكأنَّها مأخوذة من متابعة القارئ ؛ قال صاحب " أساس البلاغة "(١٠) : « تلا زيد (أى قرأ) وعمرو يتاليه ؛ وهو رسيله ومتاليه » .

والخلاصة أن المساوقة متابعة الغنـاء بالآلة ، على حين أن المراسلة متابعة الغناء بالصوت . وأما المتالاة فهى نوع من المراسلة .

---

(٦) ج ٧ س ٣٤٥ س ١١ تحت .
(٧) وهما الاتئاد فيها . وكأن اشتقاقهما من الرِسل . وقيل الترسيل فى القراءة : الترتيل .
(٨) هذا رأى صاحب " المصباح المنير " ض ك .
(٩) " الصحاح " مصر ١٢٨٢ ج ٢ س ٤٥١ .
(١٠) ج ١ س ٨٢ .

٢ — فى اصطلاحات الفلسفة

التفرد و التماسك

إنى أعرض لفظة : التفرد ، بدلاً من لفظة : الفردية ، الجارية على أقلام الكتاب لهذا العهد ، للتعبير بها عما يقال له فى الفرنسية individualisme والإنجليزيةindividualism والألمانية Individualismus . ثم إنى أعرض لفظة : التماسك ، عوضاً من لفظة : التضامن ، الشائعة عند كتابنا ، للتعبير بها عما يقال له فى تلك اللغات : solidarité, solidarity, Solidaritaet .

والتفرد أن يهمل الرجل جماعته ، قبيلةً كانت أو أمةً ، بأن ينقبض عنها فيجعل همَّه نفسه . وأما التماسك ، فأن يكون بين رجال الجماعة الواحدة التئام وتساير وتعاون ، بحيث يكونون من الجماعة بمكانة الأجزاء من الكلّ .

على أنى أعلم أن كلا هذين التعريفين غير وافٍ . فإن لكل من التفرد والتماسك خمسة مدلولات . وقد بسطها جميعاً الأستاذ لالند LALANDE فى " المعجم الاصطلاحى والنقدى للفلسفة " (١) . إلا أنى وقفت عند التعريف الخاص بعلم الاجتماع .

إنى أعدل عن لفظة الفردية إلى التفرد ، إذ الوجه — بحسب ما يبدو لى — أن الفردية تفيد ما يقال له عند الفرنجة individualité, individuality, Individualitaet ، ومثلها كمثل لفظة الشخصية personnalité, personality, Persoenlichkeit . وبيان ذلك أننا إذا نظرنا إلى الفردية

(١) *Vocabulaire technique et critique de la Philosophie*, Paris 1932, articles : *Individualisme, Solidarité* .

والتفرد من جهة الفلسفة والبناء اللغوىّ جميعاً ، تبين لنا أن صيغة لفظة الفردية تحتمل الانفعال passivité [٢] ، أعنى أنها تفيد الحاليّة . وهى توافق — من هذا البـاب — كلمة individualité [٣] . وأما صيغة لفظة التفرد فهى فعّالة forme active [٤] ، من حيث إنها تدل على النشاط dynamisme . وهى توافق — من هذا الباب — كلمة individualisme [٥] .

---

(٢) للوقوف على لفظى « الفعل » و « الانفعال » ارجع إلى أبى البقاء "الكليات" ص ٢٧٣ س ١٥ — ١٨ : « والفعل التأثير وإيجاد الأثر ، والانفعال التأثر وقبول الأثر ... » . ثم اذكر أن فلاسفة العرب قالوا : « يفعل وينفعل » فى ترجمة المقولتين التاسعة والعاشرة من المقولات العشر أو « القاطاغوريات » les catégories (لأرسطوطاليس) ، ظ ابن رشد "تلخيص كتاب المقولات" ط Bouyges بيروت ١٩٣٢ ص ٧٤ — ٩٠ ، القسم الرابع والخامس ؛ فى هذين القسمين ترد « الكيفيات الانفعالية » بمعنى qualités passives . ز الخوارزمى "مفاتيح العلوم" مصر ١٣٤٢ ص ٨٧ ى : « والمقولة التاسعة مقولة ينفعل ، والانفعال هو قبول أثر المؤثر . والمقولة العاشرة مقولة يفعل وهو التأثير فى الشىء الذى يقبل الأثر مثل التسخين ، والانفعال مثل التسخن وكالقطع والانقطاع » . ويعزز هـذا الجرجانى صاحب "التعريفات" مصر ١٢٨٣ ص ٢٦ : « الانفعال وأن ينفعل هما الهيئة الحاصلة المتأثر عن غيره بسبب التأثير أولا كالهيئة الحاصلة للمتقطع ما دام متقطعا » . ثم ارجع بعد هذا كله إلى لالند ك ك ج ٢ ص ٥٦٣ ، العمود الثانى ، المدلول الأول و ص ٥٦٥ ، العمود الثانى *critique* لتتبين أن مؤدّى لفظة passivité المستعملة اليوم بدلا من لفظة passion يطابق مؤدّى لفظة : الانفعالية ، الواردة هنا .

(٣) هذه الكلمة تدل على الكيفية : ارجع إلى لالند ك ك ج ١ ص ٣٦٨ .

(٤) اذكر « العقل الفعّال » intellect actif فى الفلسفة الإسلامية الجارية مجرى فلسفة أرسطوطاليس . واذكر خاصة فصلا للفارابى عنوانه: "مقالة فى معانى العقل" فى "المجموع" مصر ١٩٠٧ ص ٥٤ . ز بين هذا الفصل والفصل الخامس من الكتاب الثالث من "النفس" *De Anima* لأرسطوطاليس .

(٥) هذه الكلمة تدل على الميل والاتجاه tendance ، ارجع إلى لالند ك ك ج ١ ص ٣٦٧ ، التعريف الخامس خاصة ؛ وهو التعريف الذى استندت إليه قبل .

ثم إننى أعدل عن لفظة التضامن إلى التماسك ، لا لأن بعضهم أنكر ورودها فى متن اللغة ، فإن سبيل الاشتقاق ميسور للسالك ؛ ولكن لأن الضمان فى اللغة يفيد الكفالة ، ومنه : « فى الحديث : من مات فى سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة »(٦) .

وكأن الذين استعملوا لفظة التضامن بمعنى التماسك أخذوها عن أهل القانون . وذلك أن التضامن — فيما اصطلح عليه القوم — يحتمل معنى الكفالة وما وراءها من التَبِعة . ولقد أصاب أهل القانون عندنا فى استعمال لفظة التضامن ، ألا تراها تؤدى ما تحت لفظة solidarité عند أهل القانون فى فرنسة مثلاً ؟ غير أن لفظة solidarité — فى مصطلح الفلسفة — لا ينحصر مُفادها فى الكفالة (والتبعة) ، بل ينبسط على ما تقدم فى مستهلّ هذا المبحث .

ومن هنا ترى أن الذين يعالجون الفلسفة ، عندنا ، اقتبسوا لفظة التضامن من اصطلاح علماء القانون ، على نحو ما صنع الفرنجة كما جاء فى "معجم" لالند ؛ و بهذا جعلوا اللفظة مشتركة من حيث لا يشعرون . ومَن يقول إنه ينبغى لنا أن ننحو فى هذا المطلب نحو الإفرنج ؟ فإن تواضعنا على استعمال لفظة التضامن فى لغة القانون ، فليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نستعملها فى لغة الفلسفة ، ولا سيما

---

(٦) "لسان العرب" ج ١٧ ص ١٢٦ س ٧ . ظ أيضاً : مسلم "صحيح" مصر ١٣٣٤ ج ٦ ص ٣٣ ("كتاب الإمارة" باب فضل الجهاد) : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله ... فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنة ... » . ز أحمد بن حنبل "مسند" مصر ١٣١٣ ج ٢ ص ٢٣١ ، ٣٨٤ . ثم لترادف هذين الفعلين : تضمن وتكفل ، ظ هذا الحديث الآخر : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ... بأن يدخله الجنة ... » (مسلم ك ك ج ٦ ص ٣٤) .

أن لفظة التماسك لدينا ، وهي مما تواتر من فصيح الكلام . ولقد اهتديت إليها يوم تهيأ لى أن أقع على هذا المثل : « إن مع الكثرة تخاذلاً ، ومع القلة تماسكاً » (٧) :

والتماسك ضد التفكك (٨) والاسترخاء (٩) . وبهذا يدل على المتانة . ومنه : « هذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك » (١٠) . والشاهد أنَّ : مسك بالشيء وتمسك وامتسك واستمسك تأتى بمعنى اعتصم به وتعلق (١١) . وهل يُعتصم إلا بالشيء المتين ؟ ولولا أن يكون الأمر هكذا ما جاء فى القرآن : « فاستمسك بالذى أوحى إليك » (١٢) ثم : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثق لا انفصام لها » (١٣) .

هذا وإن طلبنا أصل لفظة solidarité الفرنسية (وعليها تقاس الإنجليزية والألمانية) أصبناه فى لفظة solide . وإنما solide تعدل كلمة متين . وقد رأيت فى مقدمة هذا البحث أن تماسك الجماعة لا ينهض إلا على انعقاد أفرادها ؛ وفى الانعقاد متانة .

---

(٧) الميدانى " أمثال " مصر ١٣٤٢ ج ١ ص ٥٤ .
(٨) " أساس البلاغة " ج ٢ ص ٣٨٦ ، العمود الأول تحت .
(٩) " لسان العرب " ج ١٢ ص ٣٧٧ تحت .
(١٠) " أساس البلاغة " ص ك .
(١١) " المصباح المنير " ٨٨٤ .
(١٢) سو ٤٣ آ ٤٣ .
(١٣) سو ٢ آ ٢٥٥ . ز سو ٣١ آ ٢٢ .

٨

بعض المخطوطات العربية

(لاستخراج مصطلحات مختلفة)

فى خريف سنة ١٩٣٤ بحثت فى دار الكتب الوطنية فى باريس Biobliothèque Nationale عن المخطوطات العربية التى تبذل لنا ما يعزّز أوضاع لغتنا أو يَزيد فى متنها .

وكانت عنايتى منصرفة إلى أمر المصطلحات الفنيّة والعلميّة . فوقع إلىّ نوعان من المخطوطات ، الأول : أن تنطوى المخطوطة على المصطلحات مرتبةً نحو انطواء المُعْجَم على مفردات اللغة . وأما الثانى : فأن تجرى المصطلحات فى ثنايا المخطوطة متفرقةً . ومما لا يقرب منه الشك أن مخطوطات النوع الأول أدنى منالاً وأتم فائدة ، إذ تسوق إليك الألفاظ متتاليةً معرّفة ، على حين أن مخطوطات النوع الثانى همُّها الإفاضة فى فن من الفنون باستعمال مصطلحات عليك استخراجُها فتعريفُها .

وإلى جانب هذه المخطوطات أصبت طائفة أخرى فى اللغة واللهجات .

بَقِىَ أن أقول إنى أنظر هنا فى المخطوطات التى لها شأن والتى لم تطبع بعد ، ولربما فاتتنى أشياء فى هذا الباب[١] .

معجمات المصطلحات

١ — " التوقيف على مهمّات التعاريف " لعبد الرءوف محمد ... المناوى △ ١٠٣١ . رقم ٤٣٦٢ ؛ ١٩٠ ورقة . (ظ بروكلمن ١ ج ٢ ص ٢١٦ ، ٣٠٧ ؛ بروكلمن ٢ ج ٢ ص ٤١٧ .)

قال المؤلف فى المقدمة : « فقد وقفت على كتاب لبعض المتقدمين ملقب بالذريعة إلى معرفة ما اصطلحت عليه الشريعة ، ذكر فيه تعاريف الألفاظ المتداولة على ألسنة حملة الشريعة المحتاج إليها

---

(١) إنى لا أذكر قياس المخطوطة ولا أطنب فى وصفها ولا أتعرض لمؤلفها ولا كاتبها ولا تاريخها ولا نوع خطها ، إلا عند الحاجة ؛ وذلك لأنك تجد كل هذا وما يتصل به فى " فهرس " (دى سلان de Slane, *Catalogue des manuscrits arabes*, Paris 1883-95) ثم فى " فهرس " (بلوشيه Blochet, *Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions*, Paris 1925) . وأرقام المخطوطات فى هذا البحث هى التى فى ذينك الفهرسين (ولا سيما الأول ، وآخر أرقامه ٤٦٦٥) . ثم إنى رأيت أن أرجع القارئ إلى " تاريخ الآداب العربية " لبروكلمن Brockelmann, *G. A. L.* للمعارضة والوقوف على نسخ أخرى للمخطوطة وعلى ما كتب فى شأنها . أما الطبعة الأولى من " تاريخ الآداب العربية " المذكور (سنة ١٨٩٨ ى ى) فقد دللت عليها بقولى : بروكلمن ١ ؛ وأما " تكملة " هذا الكتاب *Suppl.* (سنة ١٩٣٧ ى ى) فقد دللت عليها بقولى : بروكلمن ٢ .

فى العلوم الشرعية الثلاثة ولا يستغنى مفسر ولا محدث ولا فقيه عن معرفتها . ورأيت المولى العديم المثال الجرجانى قد انتقى من ذلك الكتاب تعريفات واصطلاحات ولم يستوعبه ولكن زاد من غيره قليلا . وألفيت الإمام الراغب ألف كتاباً فى تحقيق مفردات ألفاظ القرآن ... فجمعت زُبَد هذه الكتب الثلاثة ووشحتها بفوايد اقتنصتها من قاموس كتب غير مشهورة لا يطلع عليها كل أحد ... » .

المصطلحات مرتبة على حروف الهجاء . ولم أجد اسم المؤلف فى فاتحة الكتاب ولا خاتمته . إلا أنى قرأت على الورقة الأولى : « توقيف لمناوى » . وتحت هذا العنوان « الفهرست » . والمصطلحات ذات شأن [٢] .

٢ — "كتاب السمات فى أسماء النبات" لعزّ الدين أبى إسحق إبرهيم ابن محمد بن طرخان بن السويدى الأنصارى ۵ ٦٩٠ .

رقم ٣٠٠٤ ؛ ٣٠٧ ورقة . (ظ بروكلن ١ ج ١ ص ٤٩٣ .)

الأسماء مرتبة على الأبجدية . ولبعض الألفاظ نظائرها فى اللاتينية واليونانية والبربرية . والمخطوطة من خط المؤلف نفسه . وقد زاد عليها وحذف منها . إلا أن الورقة الأولى والأخيرة مفقودتان .

٣ — غاية الإرشاد إلى معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد" لعبد الرءوف محمد بن تاج العارفين بن على بن زين العابدين الحدادى المناوى الشافعى (وهو المذكور قبل رقم ١) .

---

(٢) والمؤلف نفسه معجم آخر نفيس عنوانه : "مقاليد العلوم فى الحدود والرسوم"، وهو يعرّف مصطلحات ٢١ فنا (ظ بروكلن ا ج ٢ ص ٢١٦) .

رقم ٢٧٦٨ (و ٢٧٦٩ ، نسخة أخـــرى) ؛ ١٤٠ ورقة .
(ظ بروكلمن ١ ج ٢ ص ٣٠٧ .)

هو معجم للعلوم المذكورة ، مرتب على حروف الهجاء ، بخط ابن المؤلف ، مع تعليقات للمؤلف نفسه .

المخطوطات التى منها تستخرج المصطلحات

١ — " المقترح فى المصطلح " لمحمد بن إسماعيل (بن) وداعة المعروف بابن البقال △ ٥٦٧ .

رقم ٤٦٣٩ ؛ من الورقة ٤ إلى الورقة ٣٨ . (ظ بروكلمن ٢ ج ١ ص ٩٠٥ .)

فى هذا الكتاب إثبات الألفاظ المستعملة فى « رمى البندق »[٣] .

٢ — " مطالع العلوم (ومواقع النجوم ؟) " لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمرى △ ١٢٠٣[٤] .

رقم ٢٣٣٩ ؛ ٢٠٥ ورقة .

هو دائرة معارف فيها من كل علم طرف (نحو وصرف وبلاغة ومنطق وجدل وكلام وفقه وطبيعة والهيات وفلك وهندسة وهيئة وموسيقى) . إلا أن الخط قبيح .

٣ — "كتاب المخزون ، جامع الفنون " لابن أخى خزام △ (؟)

رقم ٢٨٣٤ ؛ ٩٠ ورقة (و ٢٨٣٦ ، الجزء الثالث) .

---

(٣) وهو خلاف " للمقترح فى المصطلح " لابن منصور محمد البروى △ ٥٦٨ (خ فى مصطلحات الجدل . ظ بروكلمن ١ ج ١ ص ٤٦٠) .

(٤) ليس على المخطوطة اسم مؤلف . ولعله ذلك الذى دونته (ز بروكلمن ١ ج ٢ ص ٣٧٤ ، بروكلمن ٢ ج ٢ ص ٥٠١) .

نسخ هذا الكتاب سنة ٨٧٥ لأحد من خاصة المماليك (قايت باى ؟) ، وموضوعه فن الحرب ، وفيه مصطلحات كثيرة وتزاويق وأشكال . وبعض أوراقه مفقودة . وفى : بروكلمن ١ ج ١ ص ٤٣٢ ى أن هذا الكتاب المخطوط — وعنوانه "معرفة الرمى بالنشاب وآلات الحرب وأنواع وجوه الرمى وكيفيات شروطه وأحواله" — من تأليف ناصر الدين أبى عبد الله ... يعقوب بن إسحاق بن أخى حزام من المئة الثالثة .

٤ — "حاوى اللباب من علم الحساب" لتقى الدين بن عز الدين الحنبلى ⊿ ٨١٢ .

رقم ٢٤٦٩ ؛ ٤٣ ورقة . (ظ بروكلمن ٢ ج ٢ ص ١٥٦ .)

٥ — "الرسالة الشرفية فى النِّسب التأليفية" لصفى الدين عبد المؤمن ابن فاخر الأرموى ⊿ ٦٩٣ .

رقم ٢٤٧٩ ؛ ٥٦ ورقة . (ظ بروكلمن ٢ ج ٢ ص ٩٠٧ .)

هو كتاب فى الموسيقى جدّ نفيس . وقد نقل إلى اللغة الفرنسية على يد : البارون ديرلانجى D'ERLANGER ونشر فى باريس سنة ١٩٣٨ فى مجموعة *La Musique Arabe* .

فى اللغـــة

١ — "كتاب فيه جميع مختصر العين" لمحمد بن حسن الزبيدى ⊿ ٣٧٩ .
رقم ٥٣٤٧ و ٥٣٩١ (نسختان) ؛ الأولى ٣٩٦ ورقة ، والثانية ١٤٩ ورقة . (ظ بروكلمن ١ ج ١ ص ١٠٠ .)

و « العين » هنا "كتاب العين" للخليل بن أحمد ⊿ ١٧٥ (٥) .

---

(٥) وقيل لليث بن المظفر بن نصر بن سيار الخراسانى ، وكان تلميذاً للخليل (ظ أنستاس مارى الكرملى "نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها" مصر ١٩٣٨ ص ١٨٨) .

٢ — " الإقليد فى شرح المفصل " لأحمد بن محمود عمر الجَندى الأندلسى من المئة الثامنة .

رقم ٤٠٠٣ ؛ ٢٠٢ ورقة . (ظ بروكلمن ٢ ج ١ ص ٩١٠ .)

و « المفصل » هنا " كتاب المفصل " للزمخشرى ٥٣٨ .

فى اللهجـــات

١ — " الدستور فى اللغة " لأبى عبد الله الحسين بن إبرهيم بن أحمد النَطَنْزى ٤٩٩ (وقيل ٤٩٧) .

رقم ٤٢٨٦ ؛ ١٤٩ ورقة . (ظ بروكلمن ١ ج ١ ص ٢٨٨ ، بروكلمن ٢ ج ١ ص ٥٠٥) .

هو معجم للألفاظ العربية الفصيحة مع تفسير لها فى الفارسية و « العربية السايرة » . إلا أن بعض صفحات المخطوطة غير سليمة .

٢ — " معجم فرنسى مع ما يرادف ألفاظه فى اللغة العامية السورية (الحلبية خاصة) " لميشيل ا . ا . ليرو MICHEL A. A. LE ROUX

رقم ٤٣٥٤ ؛ ٧٣٦ صفحة[٦] . وتاريخ المخطوط سنة ١٧٣٨ المسيحية وهو من خط المؤلف .

---

(٦) فى كل صفحة ثلاثة أعمدة : الأول للفظة الفرنسية ، والثانى للعربية ، والثالث لرسم اللفظة العربية بالحروف الفرنسية .

ذيـــل

تلك هى بعض المخطوطات التى انتهت إلىّ فى دار الكتب الوطنيـة فى باريس . وهنالك مخطوطات أُخَر أصبتُها فى دار الكتب الوطنية فى برلين Preussische Staatsbibliothek، سنة ١٩٣٥ . إلا أنى أُعجلتُ عن إيفائها حقَّها من البحث والمراجعة . و إنى ذاكرلك بعضها على سبيل التمثيل(٧) .

فى مصطلحات الفلسفة

١ — "كتاب الجَدَل" تأليف الشيخ الإمام العالم ... شرف الإسلام شرف الدين أبى عبد الله بن إبرهيم بن عبد الواحد بن على ابن سرور المقدسى الحنبلى ﻫ بعد ٦٣٠ .

رقم ٥٣١٩ ؛ من الورقة ١٧ إلى الورقة ٣٢ م . (ظ بروكلمن ١ ج ١ ص ٣٩٨ ، بروكلمن ٢ ج ١ ص ٦٩٠ .)

٢ — "كتاب الحدود" تأليف الشيخ الإمام العالم ... شهاب الدين أحمد الشهير بابن الجندى من المئة الثامنة أو التاسعة (؟) .

رقم ٥٣٧٧ ؛ من الورقة ١٤٩ إلى الورقة ١٥٦(٨) .

هـذه النسخة ، على ما يظهر ، غير تامة : الكلام ينقطع فى منتصف ص ١٤٦ من دون خاتمة (وقفة كاتب) .

---

(٧) أرقام المخطوطات هى التى فى : آلفرت "فهرس المخطوطات العربيـة ..." Ahlwardt, *Arab. Hss.* .

(٨) هذان المخطوطان لدىّ مصوّرَن .

فى مصطلحات الموسيقى

١ — " رسالة فى السماع والرقص والصراخ واستماع إنشاد الشعر وغيره " للشيخ تقى الدين (أحمد بن تيمية) ﻫ ٧٢٨ — رقم ٥٥٠٧ ؛ من الورقة ٤١ إلى الورقة ٥٢ .

٢ — " كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع " لابن حجر الهيتمى المكى ﻫ ٩٧٣ — رقم ٥٥١٧ ؛ من الورقة الأولى إلى الورقة ٤١ .

٣ — " كتاب فى أدوار الإيقاع " لمجهول — رقم ٥٥٣٢ ؛ من الورقة ١٦٣ إلى الورقة ١٦٩ .

نظرت فى هذه المخطوطات نظرة المطلع لا نظرة المنقب . وفائدة هذه المخطوطات أنها تثبت مصطلحات وتذكر أسماء آلات :

أما المصطلحات فمثل « المعازف » أى « آلات الطرب » (رقم ٥٥٠٧ ص ٥٢ م) ، و « مجرد الغناء » أى : الغناء من غير مساوقة بالآلة (رقم ٥٥١٧ ص ٤ م) . و « السدّ » (جمع « سدود ») أى : النغمة ، نحو « عشاق » و « نوى » (رقم ٥٥٣٢ ص١٦٧) .

وأما أسماء الآلات فمثل « الصفاقتين » و « الصنج » و « الجنك » و « الكمنجة » و « السنطير » و « الدريج » (رقم ٥٥١٧ ص ١٩ ، ٢٣ ى) .

كل ذلك فضلا عما فى هذه المخطوطات من الفائدة الموسيقية الصرفة .

لَحق الكتاب

١ — المسارد*

ا — مسرد المخطوطات

ب — مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة

حـ — مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة لغير اللغة العربية

٢ — المستدرك

ا — المضاف

ب — الفائت

---

* أستعمل لفظة « المسرد » (والجمع « مسارد ») إزاء كلمة index, register بدلاً من لفظة « الفهرس » السائرة على أقلام العلماء في مصر والشرق العربي، لسببين : الأول ، أن الفهرس هو « الكتاب الذي تجمع فيه الكتب » (" لسان العرب " ج ٨ ص ٤٨) ، فينظر إذن إلى لفظة catalogue . وأما السبب الثاني فأن الفهرس أصبح من الألفاظ المشتركة ، إذ يستعمل الآن للدلالة على الكتاب الجامع للكتب ، وعلى مشتمل الكتاب أي مضمونه وموضوعاته table des matières, contents, Inhalt ، ثم على جداول الألفاظ والأسماء، وما إليها . وتراني أستعمل في هذا الكتاب لفظة « الفهرس » للمدلول الأول ، ولفظة « المشتمل » للمدلول الثاني ، ثم لفظة « المسرد » للمدلول الثالث .

و « السرد في اللغة : تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً » (" لسان العرب " ج ٤ ص ١٩٥).

المسارد :

١ – مسرد المخطوطات

١ — أثبت هنا المخطوطات المستند إليها فى مختلف المباحث ما عدا البحث الثامن : " بعض المخطوطات العربية " ، وذلك لأن المخطوطات المدرجة فيه قريبة المنال بما هو عليه من الترتيب مع قلة الصفحات .

٢ — الإشارة الأولى بالرقين الكبير والصغير (رقم الصفحة فرقم السطر) ترجع إلى الموضع الذى فيه وصف المخطوط . وسائر الإشارات ترجع إلى المواضع التى ذكر فيها .

٣ — دونك مسردين : الأول لأسامى المخطوطات ، والثانى لأسماء المؤلفين . وقد رتبت أسامى المخطوطات على حروف المعجم ورقمتها على التالى من ١ إلى ١٩ . ثم رتبت أسماء المؤلفين على حروف المعجم أيضاً ؛ إلا أن الأرقام التى تسبقها إنما ترجع إلى أرقام أسامى المخطوطات ، مثلا : « ابن أبى الدنيا ٩ » = هذا مؤلف المخطوط رقم ٩ وعنوانه : " مكارم الأخلاق " .

أسامى المخطوطات

١ " أدب الإملاء والاستملاء " للسمعانى
ص ٤٢ س ١٧

٢ " رسالة فى خلق الإنسان " لمجهول
٤٦ ٢٤—٢٧ ٨—٢٣ ٤٥ ١٤ ١٨

٣ " العجالة الزرنبية فى السلالة الزينبية " (١) للسيوطى
١٠٤ ١٤—١٥

(١) هذا المخطوط موجود فى غير دار الكتب المصرية ، ظ بروكلمن " تاريخ الآداب العربية " .G.A.L ج ٢ ص ١٥٠ ، ك ك " تكملة " .Suppl ج ٢ ص ١٨٦ (رقم ١١١).

٤ "كتاب الفتوة" للأردبيلى
٥٩ ٩—١٠ ٢٠—٢٢ ٦٠ ١٥—١٦ ٦٦ ١٥—٢٢ ٧٠ ١٤

٥ "كتاب الفتوة" للسُلمى
٥١ ١٤—١٦ ٣٩ ٧—٨ ٥١ ٥—٦

٦ "فصل فى المروّة" لمجهول
٥٩ ١١ ٦٠ ١٧—١٨ ١٩—٢١ ٦٢ ٢١—٢٦

٧ "مرآة المروّات" (٢) لابن جعدويه
٥٩ ٦—٨ ١٤—٢٠ ٤٣ ٢٥ ٥٠ ١٠—١١ ١٣—١٤ ٢١ ٥١ ١—٢ ٧—٨
٦٦ ٧ ١٣ ٧٠ ٥ ١٢ ٢٣—٢٦

٨ "مكارم الأخلاق" لمجهول
٣٣ ٢١—٢٤

٩ "مكارم الأخلاق" لابن أبى الدنيا
٣٢ ٢٧—٣٠ ٣٩ ٧ ٤٠ ١٠—١٣ ٤٣ ١٥ ٢٤ ٤٤ ١١—١٨
٤٦ ٢—٣ ٦٦ ٥

١٠ "مكارم الأخلاق" للطبرانى
٣٣ ٤—٦ ٤٢ ١٦—١٧

١١ "مكارم الأخلاق" للنيسابورى
٣٣ ٢٥—٢٨

١٢ "مكارم الأخلاق" لابن الصباغ
٣٣ ٢٦—٢٨

١٣ "مكارم الأخلاق" لابن حبيب
٣٤ ٦—٨

١٤ "مكارم الأخلاق" لابن عبد الرحمن
٣٤ ١١—١٣

---

(٢) هذا المخطوط لدىّ مصورا .

١٥ ″ مكارم الأخلاق ومذامّ الأخلاق ″ للبرق

٣٤ ٩—١٠

١٦ ″ مكارم الأخلاق وطيب الأعراق ″ (٣) لابن بنين

٣٤ ١٢—١٣

١٧ ″ مكارم الأخلاق والسياسة ″ للتسترى

٣٣ ١٠—١٤ ٤٧ ١١—١٤ ٤٨ ٥—٢١ ٥١ ٩ ظ بعد ″ المضاف ″ .

١٨ ″ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدائع الأوصاف وغرائب التشبيهات ″ لمجهول (٤)

٣٣ ١٥—٢٠ ٤٠ ١٩—٢١ ٤٢ ٢٢ ٥١ ٢—٤ ٥٩ ١٢—١٣

٦٠ ١٨—٢١ ٦١ ١٨—١٩ ٦٦ ٢٦—٢٧

١٩ ″ مكارم الخلاّق لأهل مكارم الأخلاق ″ لابن كنان الدمشقى

٣٣ ٧—٩ ٤٩ ٩—١١

أسماء المؤلفين (٥)

ابن أبى الدنيا	٩	البرق	١٥
ابن بنين	١٦	التسترى	١٧
ابن جعدويه	٧	السلمى	٥
ابن حبيب	١٣	السمعانى	١
ابن الصباغ	١٢	السيوطى	٣
ابن عبد الرحمن	١٤	الطبرانى	١٠
ابن كنان الدمشقى	١٩	النيسابورى	١١
الأرديلى	٤		

(٣) المخطوطات رقم ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ مفقودة كما تقدم ص ٣٣ ى .
(٤) تقدم أنى نشرت المخطوط رقم ٦ وبعض المخطوطين رقم ٤ و ١٨ .
(٥) وهى مختصرة ، وتجدها كاملة فى المراجع — ظ أيضاً ″ الفائت ″ .

ب – مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة

الرقم الكبير يشير إلى الصفحة، والصغير إلى السطر . وإذا كثر ورود الكلمة أشرت إلى أول موضع ترد فيه ثم أضفت : كثيرا ، والمراد : كثيرًا ما ترد .

ابتذال اللفظ ص ٦٢$_{س ٥}$

... المعنى ١١٥$_{١٦-١٧}$

الإبدال ١٥$_{١٠}$

الاتحاد (في المفهوم) ١١٨$_{١٩}$

الاتساع في القول ٣٦$_{٩}$

الاحتمال ٥٧$_{٧}$ ، ٩٤$_{١}$ ، ٩٥$_{٦}$

احتمال المعنى ١٠٠$_{٢-٣}$ ، ١٢١$_{٢}$

الأخلاقيّ (العالِم) ، الأخلاقيّون ٤٧$_{٢}$ كثيرا

الأخلاقيات (علم) ٣٦$_{٣}$ كثيرا

الأخلاقيات التقليدية ٣١$_{٣}$

... العملية ٤٨$_{٥-٦}$

... النظرية ٦٨$_{٩}$

الأخلاقية (صفة) ٣٤$_{٣}$ كثيرا

الاستطلاع ٧

الاستغراق ٧٢$_{٢}$

الاستلزام ١١٦$_{٧}$

الاشتباه ٨٧$_{٢}$

إطلاق العام على الخاص ٩٧$_{١}$ ، ١١٦$_{٦}$

اعتبار الواقعات ٧٣$_{٢١}$

الإلزامات ٧٢$_{٨}$

الإلٰهيّات ١٠$_{٢}$

الأمثال العالية ١٢$_{١٧}$

الإمداد ٣١$_{١٠}$ ، ٩٣$_{١٣}$

الأمور الكلية العامة ١٣$_{١}$

الأمين ١١٤$_{١٦}$

الانفعال ١٢١$_{٧ ، ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨}$

الانفعاليّة ١٢١$_{٢٢}$

أن ينفعل ١٢١$_{١٨}$

أهل اللسان ١٦$_{٢-٣}$

الأوضاع العربية ١٥$_{٩}$

الإيقاع ١١٩$_{١}$

بذاتها ومن ذاتها ٩١$_{٨}$

البسيط ١٢$_{١٤}$

البصيرة ٥٧$_{٧}$ ، ١١٣$_{١}$

بَعْدى (نسبة إلى بعد) ١١٠$_{١٩}$

بالفعل ٦٨$_{١٠}$ ، ٩١$_{٢}$ ، ١١٦$_{١٢}$

بالقوة ٩١$_{٢}$

بما هو ... هى ٧١$_{١}$ ، ٧٤$_{٧}$

البناء الاجتماعى ٨٥$_{٣}$ كثيرا

البناء اللغوى ١٢١$_{١}$

التبعة ٨٢$_{٧}$ ١٢٢$_{٧، ١٠}$

التجريد ٦٢$_{٦}$، ٦٩$_{١}$

التحريف ١٥$_{١٠}$

التحقيق ١٢$_{١٢}$

التحكم ٩٤$_{١٥}$

التحليل النظرى ٤٨$_{٨}$

التحوّل ٩٥$_{٢}$

التخصيص ٥٤$_{١٦}$، ٦١$_{٦}$

التخيّل ١٢$_{١٣}$، ٧٢$_{٥}$، ٧٣$_{٨}$

التدبير ٤٨$_{١٧، ٢٤}$

التدليل ٣٦$_{١}$

الترادف ١٠٠$_{١}$، ١٢٢$_{٢١}$، المترادف ٨٩$_{٢}$

الترتيل ١١٩$_{٢٠}$

الترسّل ، الترسيل ١١٩$_{٧، ٨، ٢٠}$

التشريفات ١٠٥$_{٤}$، ١١٣$_{١٤}$

التشريفاتى ١١٣$_{١٥، ٢٢}$ كثيرا

التشيّع للآراء ١٣$_{١}$

التضامن ١٢٢$_{١}$، كثيرا

التعاون ٤٨$_{٢٢}$، ١٢٠$_{١٠}$

التعريف ، التعريفات ٦٠$_{٣}$، ٥٨$_{٤، ٦}$ كثيرا

التعريف بمحض الذات ٥٤$_{١٥}$ (١)

التعريف الحقيقى ٦٠$_{٧}$

تعويض الضرر الأدبى ١١٣$_{٥}$

التعيين ٥٤$_{١٦}$

التفرد ٧٥$_{٢}$، ١٣٠$_{٢}$ كثيرا

التقريب ٥٧$_{٧}$

تقطيع الأصوات ١١٧$_{١٤}$

التقليد ، التقاليد ٥٦$_{١٧}$، ٥٥$_{٦}$، ٩٠$_{١٤}$

التقليدية (صفة) ٣١$_{٣}$

تقييد المعنى ٩٨$_{٤}$، ١١٠$_{١٢}$، ١١٦$_{٧}$

التلحين ١١٧$_{١٣}$، ١١٨$_{١}$

التماسك ٧٥$_{٢}$، ١٣٠$_{٢}$ كثيرا

التماسك الحسى ٨٠$_{١٣}$، ٨٢$_{٣}$

التماسك المعنوى ٧٦$_{١٠}$، ٧٧$_{٨}$، ٧٩$_{١٠}$

التمييز ٦٠$_{٧}$

التناقض ٦٥$_{٤}$

تهذيب الأخلاق ٣٦$_{٢-٣}$

التواتر ١٢٣$_{١}$

التوسّع فى القول ٦٢$_{٥}$

الثأر الانفعالى ٨٢$_{٥}$، ٨٣$_{٣}$

الثأر الفعّال ٨٢$_{٥}$، ٨٣$_{٣}$

الجاه ٩٠$_{١٣}$، ١١٦$_{١٦}$

الحال الناشطة ١٠٠$_{٥}$

(١) ظ بعد " الفائت ".

الحال الواقفة ١٠٠$_{٥}$
الحاليّة ١٢١$_{٢}$
الحدّ ٩٤$_{١٥}$
الحدس ٦٨$_{١٠}$
الحديث : علته ، ضعفه ؛ صحيح ، موضوع ؛ متصل ، منقطع ؛ منقول على طريقة كذا ٤١$_{٦-١٠}$
حُرمة ١١٣$_{١٦}$
الحسّيّات ٩٥$_{٩}$
الحقيقة ٩٥$_{٩}$، ٩٦$_{٤}$
الحكمة الخُلقية ٣٦$_{٣}$، ٦٩$_{٢}$
الحكمة الخلقية النظرية ٤٧$_{١٩}$

الخارجيّ ١١٢$_{١٧}$
الخاصّ (إطلاقاً) ١٢$_{١٥}$
الخاصة (الألفاظ) ١٦$_{٩}$، كثيرا
الخاصيّة المجرّدة ٧١$_{١١}$
الخُلق (المعنى ، الواقعة ، العادة) ١١٢$_{٣}$، ٥٦$_{٢}$، ١١٦$_{٣}$، ٢١، ٧٣$_{١٤}$ كثيرا(٢)
الخواصّ ٨٩$_{١٧}$

درجة شرف ١١٤$_{٧}$

الذات ظ : بذات ، التعريف بمحض الذات ، من ذات

الذاتيّة (إطلاقاً) ١٢$_{١٣}$، ذاتي (أصل) ٥٤$_{٧}$

ردّ شرف ١١٣$_{٤}$
الرياضات النفسانيّة ٥٤$_{١٤}$

السلوك ٥٦$_{٥}$، ٦٧$_{١٠}$
السياسة ٤٧$_{١٢}$، ٤٨$_{١٧}$
سياسة النفس ٤٩$_{٤}$

الشخصيّة ١٢٠$_{١٨}$
شرف المهنة ١١٤$_{٥}$
(على) شرف فلان ١١٤$_{١٠}$
الشيخ ١١٤$_{٢٢}$

الصفات اللازمة ٧٥$_{١٠-١١}$
(جملة) صلات اجتماعية ٧٦$_{٦}$

الضمان ١٢٢$_{٣}$

العامّ (إطلاقاً) ١٢$_{١٥}$
العرض ٥٣$_{١٣}$ كثيرا
العشير ٧٦$_{١١}$
العصبيّة ٨٤$_{٥}$
العقل الفعّال ١٢١$_{٢٤}$
علم الاجتماع ١٢٠$_{١٥}$
علم الأخلاق ٣٦$_{٣}$
علم السلوك النظرى ٥٤$_{٢-٣}$

(٢) لفظة « الخلق » تتصل بالمؤدى اللغوى ، ولفظة « الأخلاق » بمادة الأخلاقيات أو علم الأخلاق.

علم الكلام ٦٨$_{٨}$
علم الواقعات الخُلقية ٥٦$_{٢}$
العلم الوضعى ٧٣$_{٢٠}$
العناصر الأصلية ٤٨$_{١٥}$
العنصر اللازم ٥٦$_{١٦-١٧}$

الغالب (المدلول) ١٠١$_{٢}$

الفائت ١٣٣ ١٤٨
الفائض ٥٤$_{٨}$
الفتوّة ٣١$_{٥}$، ٥٠$_{٦}$، ٥١$_{٥ ٦ ٨ ٩ ١١}$
٥٢$_{٢ ٣ ٤}$، ٧٠$_{٤ ٥ ٧}$، ٧١$_{٥ ٦ ٨}$
الفرديّة ١٢٠$_{٣}$ كثيرا
الفرض ١٢$_{١٢}$
الفروسيّة ٥٢$_{١}$
الفعّال ١٢١$_{٤}$
الفعل ١٢١$_{٧ ٨}$ ظ : بالفعل
الفهرس ١٣٣$_{٩-١٨}$
الفهم ٧٣$_{١٢}$

القاطاغوريّات ١٣١$_{١١}$
قَبْلى (رأى) ١٣$_{٢}$، ١١٠$_{٦ ١٩ ٢١}$
القَبول ١١١$_{٢٢}$، ١٣١$_{٩}$
القرع ١١٨$_{٢}$
القوانين الكلية ٤٨$_{٢٨}$
قوى النفس ٤٨$_{٨}$ ظ : بالقوة
القوى الشهوانية ٤٨$_{٩}$
القوى الغضبية ٤٨$_{٨-٩}$

القوى الناطقة ٤٨$_{٨ ٣١}$
القِيَم ٥٤$_{٦}$، ٥٥$_{٦ ١٦ ١٧}$ ٧٢$_{٢}$
... الأخلاقية ١١٦$_{١٥}$
... المجرّدة ٧٣$_{٧}$، ١٠٨$_{٥}$

الكتب المعتبرة ٤٣$_{٢}$
الكفالة ١٢٢$_{٣ ٧ ١٠}$
الكلاميّة ٤٨$_{١}$
كلمة رَمْز ٥٧$_{٣}$، ٧٣$_{٥ ٦}$ ١٠٨$_{٤ ١٣}$
١١٦$_{١٥}$
الكَلِم الروامز ٧١$_{١٢}$، ١١٣$_{١}$
الكمّ ٨٧$_{٦}$
الكيف ٨٧$_{٦}$
الكيفيّة ٦٠$_{٢}$ ١٢١$_{٢٣}$
الكيفيّات الانفعاليّة ١٢١$_{١٣}$

اللبس ٨٩$_{٤}$ ، الملتبس ٩٣$_{٥ ٦}$
لَحق الكتاب ١٣٣
اللدونة ٥٤$_{١٨}$ ، لدن ٣١$_{٦}$
اللطافة ٥٤$_{١٨}$

ما ظ : بما
المبدأ (إطلاقاً) ٣٤$_{٢٨}$ ١٠٢$_{٣}$ ١١٠$_{١٤}$
مبدأ اجتماعى ٧٣$_{٦}$
... أخلاق ١١٢$_{٦}$
... دفع جذب الملايم ٤٨$_{١٣}$
... دفع المنافر ٤٨$_{١١}$
... الفكر ٤٨$_{١٠}$

... معنوى ٧٣$_{٧}$
المبذول (إطلاقاً) ٧٣$_{١٢}$ ، مبذول (أصل) ٥٤$_{٧}$ (واقعة) ٥٦$_{٣}$
المتالاة ١١٩$_{١٤}$ ، المتالى ١١٩$_{٣}$ كثيرا
المتعارَف ٦٢$_{٢٠}$
المتكلم ، المتكلمون ٥٤$_{٢١}$ ٤٧$_{٦}$
المتمكن فى الواقع ٧٣$_{١٨}$
المتميِّز ٨٩$_{١}$
المتوهَّم (المعنى) ٧٣$_{٢٠}$
المجاز ٦٢$_{٧}$ كثيرا
المجاورة ١٠٥$_{٦، ٨}$ ١١٥$_{١٠، ١١}$
المجانسة ٨٩$_{١٨، ٢٠}$ ٩٠$_{٢١}$
المجرَّد ١٣$_{١}$
المحَسّ ٥٦$_{١٢}$
المحسوسات ١٢$_{١٧}$
مدّ الصوت ١١٩$_{٢}$
المدرَك : الأخلاق ٧١$_{٢}$ ، العام ٧٤$_{٨}$ ، الملتبس ٩٣$_{٥، ٦}$
المراسلة ١١٧$_{٤}$ كثيرا ، المراسل ١١٩$_{٣}$ كثيرا
المُرتجل (الرأى) ١٣$_{٢}$ كثيرا
المركَّب ١٢$_{١٤}$
المسالك الوَضعية ١٠$_{١}$
المسانيد ٤٢$_{٤}$ ٤٣$_{١٥}$ ٥٣$_{٤}$
المساوقة ١١٧$_{٤}$ كثيرا
المسرد ١٣٣$_{٢، ٩-٢٠}$ كثيرا
المسلّمات ١٢$_{١٤}$
المشاهدة ١٢$_{١٢}$
المشترك (اللفظ) ١٢٢$_{١٤}$ ١٣٣$_{١٣}$
المشتمَل ٧ ١٣٣$_{٩-١٨}$
المضاف ١٣٣ ١٤٥
المعارضة ٥٥$_{١٦}$
المعنوية (إطلاقاً) ٦٥$_{٧}$، ٦٧$_{١}$، ١١٢$_{١}$، المعنويات ٩٥$_{٩}$
المعيّه ١١٨$_{٩}$
المفرَدة ٧١$_{٢، ١٣}$ ١٠٨$_{٦}$
المفهوم ١١٨$_{١٩}$
المقابلة ٧٢$_{٧}$، ٩٨$_{١}$، ١٠١$_{١}$، ١٠٩$_{١٢}$
المقارنة ١١٨$_{٩}$
« المقامات والأحوال » ٤٩$_{٨}$
المقبولات ١٢$_{١٤}$
المقولة ، المقولات ١٢١$_{١٠، ١٥}$
المقيَّد (المعنى) ١١٦$_{١٠، ١٣}$
الملموس ٧٦$_{٤}$
المماثلة ٧٣$_{٤}$
من ذى نفسه ٧٧$_{٣}$
من الخارج ٨٩$_{١٠}$
المنطق ١٠$_{٢}$
المنهج الوضعى ١١٠$_{٦-٧}$

المواضَعات ١١٧$_{٨}$

الموضوعية (إطلاقاً) ١٢$_{١٣}$، موضوعى (أصل) ٥٤$_{٧}$ (بحث) ٧٤$_{٢}$

نسب منتظمة ١١٧$_{١٤}$

نسبى ٥٠$_{٦}$

النظر (إطلاقاً) ٧٣$_{١٤}$ ... المجرد ٥٦$_{١١}$

النظرى ٥٤$_{٢-٣}$ ٦٨$_{٩}$

النغم الحادى ٣٩$_{١}$ ٤١$_{٢}$

النفخ (فى الآلات) ١١٨$_{٢}$

النفس الشهوانيّة ٤٧$_{٢١-٢٢}$

النفس الغضبيّة ٤٧$_{٢٢}$

النفس الناطقة ٤٧$_{٢١}$

النقد الباطنى ٤٢$_{٧}$

... الخارجى ٤٢$_{٦}$

النقـل ٧٣$_{١}$ ١١٦$_{٢}$

نقل الحروف ١٥$_{١٧}$

نيف ١١٣$_{١٦}$

الواقعة ، الواقعات ٥٢$_{٩}$ كثيرا

... الخلقية المحسّة ٥٦$_{١١-١٢}$

وصائف الشرف ١١٤$_{٥}$

وصيفات ... ١١٤$_{٢٤}$

الوضعى ٥٦$_{٤}$ ١١٠$_{٦-٨}$

الوهم ٦٨$_{١}$، ٧٣$_{١٨}$

يفعل ١٢١$_{٩}$، ١٠

ينفعل ١٢١$_{٩}$، ١٠

تنبيه — أغفلتُ الألفاظ الخاصة بلغة القانون ، الجارية فى المبحث الأول : "مسلمون فى فنلندة" ، لشيوعها ، ثم المصطلحات الواردة فى المبحث الثامن : "بعض المخطوطات العربية" ، لاتصالها بهذه المخطوطات وحدها ، ثم الألفاظ والتعبيرات العامّية ، لقلتها .
الكثير من هذه الاصطلاحات والألفاظ الخاصة مما وَضَعْتُ أو مما تخيرت . والقليل منها وارد فى النصوص المقتبسة . وبالمراجعة يتميز هذا من ذلك .

ح ـ مسرد الاصطلاحات والألفاظ الخاصة

لغير اللغة العربية

(e) = الكلمة إنجليزية . (d) = الكلمة ألمانية . والكلمة المرسومة بالحرف المائل : لاتينية . وسائر الكلمات : فرنسية أو مشتركة .

accompagnement 117, 118
accompaniment (e) 117
acte, en 91, 116
a priori 110
arbitrairement 46

Begleitung (d) 117
bonnes mœurs 38

catégories 121
cérémonial 114
chambellan 114
chevalerie 52, 71
citation 18
communication 31
concept confus 93
contents (e) 133
contribute 76
critique externe 42
critique interne 42

dames d'honneur 114
définition essentielle 54
définition réelle 60
degree with honours (e) 114
dehors, du 89
délicatesse 54
demoiselles d'honneur 114
distinctes (agglomérations) 89
dommages et intérêts moraux 113
donné, le 73
dynamisme 121

éminentes vertus 38
enquête 7
en tant que 71
entendement 73
entr'aide 48
espèce humaine 48
état dynamique 100
état statique 100
ethics (e) 36
Ethik (d) 36
éthique 36
éthologue 56

fait 52, 56
forme active 121

homogénéité 89
honneur professionnel 114
honoris causa 115

index 133
individualism (e) 120
individualisme 120, 121
Individualismus (d) 120
Individualitaet (d) 120
individualité 120, 121
individuality (e) 120
Inhalt (d) 133
inquiry (e) 7
intellect actif 121

Leitmotiv (d,...) 39
lois universelles 48

maids of honour 114
maitre des cérémonies 113
mention honorable, avec 114
morale 36, 56
moralité 56
morphologie sociale 86
mot symbole 73, 108

notion éthique 71

objectives (valeurs) 54
obligations 72

particular (e) 16
passion 121
passivité 121
Persoenlichkeit (d) 120
personnalité 120
personality (e) 120
prénotion 110
prestige 116
puissance, en 91

qualités passives 121
quotation (e) 18

rapports sociaux, une somme de 76
Register (d) 133
restriction, par voie de 97

science des faits moraux 56
Sittenlehre (d) 36
soi, en soi et par soi 91
Solidaritaet (d) 120
solidarité 120, 122, 123
solidarity (e) 120
souplesse 54
subjectives (valeurs) 54

table des matières 133
technical (e) 16
technique 16
tendance 121
tradition 56
transliteration (e,...) 15
typique 16

usure sémantique 115

valeurs 54
virtus 72

١ — المضاف

ص ٣٣ (ح) ٩ : أرشدني المستشرق الدكتور مايرهوف إلى تاريخ وفاة التستري ، وهو : محمد بن أحمد بن عثمان التستري (الأصل) المدني أبو عبد الله شمس الدين ﻫ ٧٨٥ (ظ العسقلاني "الدرر الكامنة ..." حيدرآباد الدكن ١٣٤٩ ج ٣ ص ٣٣٨ ؛ ابن العماد "شذرات الذهب ..." مصر ١٣٥١ ج ٦ ص ٢٨٨ ى) . واطلع الدكتور شَخْت ، أستاذ اللغات السامية في كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول ، على كتاب "مكارم الأخلاق والسياسة" للتستري (وهو مخطوط) بعد نشري مبحث "مكارم الأخلاق" بالفرنسية في رومة كما تقدم (ص ٣١) . فأخبرني قال : « إن الذي في رأيي : ١ — الشك في أن عنوان الكتاب : "مكارم الأخلاق والسياسة" ، وإن أثبِت كذلك في صدر النسختين . والسبب أن كاتب النسخة رقم ١٣٥٣ قال في خاتمة الكتاب : تم كتاب مكارم الأخلاق والسياسة والزهد وما أشبه ذلك ... ٢ — الشك في أن الكتاب للتستري ، وإن أثبِت اسمه في صدر النسختين . والسبب أن التستري ذُكر في ص ٢ من النسخة رقم ٩٩٤ و ص ٢ م من النسخة رقم ١٣٥٣ على أنه صاحب "كتاب الأخلاق" . ٣ — الظاهر أن الكتاب تصنيف وجمع ، إذ فيه فصول من "كتاب الأخلاق" للتستري و "وبداية الهداية" للغزالي و "سراج الملوك" للطرطوشي . » وبعدُ ، فسواء كان العنوان هذا أو غير هذا ، وسواء كان التستري صاحب المخطوط أو غيره ، فالحديث الذي استخرجته من "مكارم الأخلاق والسياسة" إنما هو مثبت في المخطوط .

ص ٣٤ س ٣٠ : ظ أيضاً : محمد صفي الدين الحسيني العاملي "مناهل الأشواق في العقل والعلم ومكارم الأخلاق" صيدا ١٩٣٢ . وفي هذا الكتاب أن المظهر الخاص بالإنسان هو مكارم الأخلاق ، و « للدين الإسلامي قانون أساسي هو أساس مكارم الأخلاق » (ص ٣٢ ى ى) .

ص ٤٧ (ح) ٤٦ : أيضاً : يحيي بن عدى (وهو مسيحى ٥ ٣٦٤ أو ٣٦٣) "تهذيب الأخلاق" مصر ١٩١٣ ص ١١ س ٧ ؛ ز ص ٤٨ س ١٣.

ص ٦٧ (ح) ٣٨ : وتجد بيت بشار فى : النويرى "نهاية الأرب..." مصر ١٩٢٤ ج ٣ ص ٨٠ . ٥ (ح) ٣٩ : و "الأدب الكبير" الإسكندرية ١٩١٢ ص ١٢ . ٥ (ح) ٤٠ : ز "الأدب الصغير" فى "رسائل البلغاء" مصر ١٩١٣ ص ٥٣ : « والرجل الذى لا مروءة له يهان » . ٥ (ح) ٤١ : ز ذ رواية "رسائل البلغاء" ص ١٠٥ : « رقة شأن وخفة منزلة » .

ص ٦٨ (ح) ٤٣ : ز ابن منقذ "لباب الآداب" ط أحمد محمد شاكر مصر ١٩٣٥ ص ٢٢٨ ، ٢٣٤ : « اطلب الأدب فإنه دليل على المروءة » ، « ولا مروءة لمن لا أدب له » .

ص ٦٩ (ح) ٥٠، ٥١ : ز "الكنز المدفون والفلك المشحون" مصر ١٢٨٨ ص ٦٥.

ص ٧٢ س ١ : (... والفتوة) والدين والعقل : ظ "الأدب الكبير" فى "رسائل البلغاء" ص ٦٠ س ٨ ، ص ٧٥ س ٤ ، ص ١٠٥ س ١٣ ؛ ابن خلدون "مقدمة" بيروت ١٩٠٠ ص ٣٠٥ ؛ أيضاً قبل ص ٦٥ س ١١ . ثم ظ "الأدب الصغير" فى "رسائل البلغاء" ص ٥١ س ١٧ ، ز ص ٤٥ س ١١ ؛ "مرآة المروءات" الباب الخامس ؛ أيضاً قبل ص ٦٦ س ١ . ٥ (ح) ٦٧ : ظ ، حديثاً ، Ph. Hitti, *History of the Arabs*, London 1937 ص ٢٥ ، ٩٥ خاصة .

ص ٧٧ س ١٠ : ز بيت البراق فى "شعراء النصرانية" ص ١٤١ ، ش ٤ .

ص ٧٩ س ٩ : ... وتمسكهم بها وانجذابهم إليها : ظ أبيات البراق فى "شعراء النصرانية" ص ١٤٢ ، ش ١ — ٣ . ز ، عند عرب اليوم ، قول البدوى : «كل عشيرة تشاطر أفرادها الفرح والترح» ("خمسة أعوام فى شرق الأردن" ص ١١١ فوق) . ٥ (ح) ٢١ : وعند قبيلة «الروَلة» فى شمال الجزيرة لهذا العهد ، كل الحىّ « يِطرِد وينطرِد » (أى : أنه مجتمع على الهجوم والدفاع) : ظ Musil, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York 1928 ص ٤٨٩ .

(لقبيلة «الرولة» ، فى اللغة العربية ، ظ الريحانى "ملوك العرب" بيروت ١٩٢٩ ج ٢ ص ٥٥ س ١٠ ى ى ، ص ٥٦ س ٣ ى ى .)

ص ٨١ س ١٢ : ز قول البراق فى "شعراء النصرانية" ص ١٤١ ، ش ٦ .

ص ٨٢ س ٦ — ٩ : وعند « الرولة » التبعة على جميع أهل القاتل (...The Manners ص ٤٨٩) .

ص ٨٣ س ١٠ : هذا أمر عارض . والجارى فى شرقىّ الأردن ، كما جاء فى "خمسة أعوام ..." أيضاً (ص ١١٠ى) ، أن المدفوعين إلى الثأر م أولاد القتيل وأقرباؤه بل عشيرته كلها . ز عند « الرولة » : الثأر واجب على جميع أهل القتيل (...The Manners ص ٤٨٩) .

ص ٨٦ س ٤ ى ى : صرفتُ أكثر وجه الكلام إلى ترتيب أنساب العرب بحسب مذهب الماوردى الذى اختاره فى كتابه : "الأحكام السلطانية" ، لأنه قصد التأليف فى هذا الباب قصدا ، ولأن هذا الترتيب إنما هو الذى دُوّن عليه إثبات العرب فى القسم الخاص بالجيش من « الديوان » لعهد عمر ومن تبعه .

ص ٨٧ (ح) ١٤ ، ٩٢ (ح) ٣٤ : وعند « الرولة » ، القبيلة والعشيرة (و «البِديدة» أيضاً) بمعنى . ويعبر عن الحىّ بلفظة « الآل » ، وكثيراً ما يستبدَل بها « أل » المعرفة . وآل بمعنى « بنى » أو « ابن » فى الغالب . ولفظة الآل فوق « الأهل » شمولاً فى المعنى ، وهى تضم أقارب الرجل . وأما تعبير « أهل البيت » فيدل على زوج صاحب البيت أو امرأة أخيه (ويقال أيضاً : « راعية البيت ») . ولفظ الأهل ، بمعناه الأشمل ، يفيد جماعات معينة يضم بعضها إلى بعض دفاع مشترك فى الغالب . ثم : الجماعة والقوم بمعنى واحد على وجه التقريب ، وهما البدو يسوسهم سيد (...The Manners ص ٤٧ — ٥٠) .

ص ١٠١ (ح) ٤٢ ، ص ١٠٢ (ح) ٤٤ ، ٤٦ ؛ وغير ذلك : ورد : الترمذى "سنن" ، الترمذى "صحيح" ؛ والاسمان لكتاب . ثم : الدارمى "سنن" ، الدارمى "مسند" ؛ والاسمان لكتاب .

ب – الفائت

ص	س	اقرأ	بدلاً من
٢٣	٢	بفنلندة	الفنلندية
٢٨	١٣	شؤوت	الشؤون
٣٢	٢٧	لأبى بكر عبد الله ... بن عُبيد ...	لأبى بكر بن عبد الله ...
٣٣	١٤،١٥و١٧،٢١	٩٩٤ — بدائع غرائب — ج ٥	٤٩٤ — بدايع غرايب — ج١٧
٣٤	١٤ ، ١٥	١٩١١ - الجاحظ "المحاسن والأضداد"	١٣٣٠-البيهقى "المحاسن والمساوى"
٣٧	٢٢ ، ٢٣	المعالى — س ٢٧	العلى — س ٢٢٧
٣٨	١٢	المخطوطات س ٢ ، ٢٦ ى	الكتب س ٢
٤٦	٢٨	ج ٢ س ٣١٢ ى ى	س ٣١٢ ى
٤٩	١٦ ، ١٨	"مكارم الخلاق" — مصر ١٣٢٩ ج ٢	"مكارم الأخلاق" — ج ٢
٥٤	١٥	التعريف بمحض	التعريف اللاحق
٥٩	٩	ميكائيل	ميائيل
٦٥	١٥	س ٥٨ تحت	س ٥٩ فوق
٦٨	١٣	ز المتضمن فى س ٢٥ س ١٥ ى ى	س ٢٥ س ٤ ى ى تحت
٦٩	١٨	الفيروزابادى	الفيرورزبادى
٧٠	١٢	"مرآة المروّات"	"مرآة المروءات"
٧٢	١٢	"مرآة المروءات"	"مرآه المروءات"
٨٠	١٠ ، ١١	ابن ملك — ابن الملك	ملك — الملك
١٠٢	١٨	١٩٠٢	١٩٠٠ ى
١٠٣	٢٤ ، ٢٥	ج ٥ س ١١ ، — ٢٠ الإنجليزية	س ١١ — ى ى الفرنسية
١٠٤	١٤	الزيفية س ٧ ، ظ	الزيفية ظ
١١٥	٢٤	مصر ١٩٣٦ ، السنة ١٩٣٥	مصر ١٩٣٥
١٣٤	١٢	تليها	تسبقها
١٣٩	٢٣	الذات	الذات ، من ذات

BISHR FARÈS

Docteur ès-Lettres de l'Université de Paris

ÉTUDES ARABES

Sociologie et Linguistique

Editions AL-MAAREF
Le Caire
1939

